



الرُّومِيَّةُ الأَرْتُوذَكْسِيَّةُ

حَقِيقَةُ التَّدْبِيرِ الإِلَهِيِّ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ



فسيفساء «المسيح الجالس على العرش»
في كنيسة الحكمة الإلهية المقدسة
«آچيا صوفيا» - القسطنطينية
ويظهر فيها الإمبراطور
قسطنطين التاسع المونوماخوس
والإمبراطورة زوي، مع لقب «ملك الروم»
(Βασιλεὺς Ῥωμαίων).

تعود هذه الفسيفساء إلى القرن الحادي عشر الميلادي.



كلمة صاحب الغبطة بطريرك المدينة المقدسة اورشليم كيربوس كيربوس ثيوفيلوس الثالث بمناسبة عيد القديسين العظميين قسطنطين وهيلانة، المعادلين للرسل

٢-٦-٢٠٢٣ ش، الواقع في : ٢٠-٥-٢٠٢٣ غ

فإن سلاح
الصليب أشرق
يسطع نوراً في
وسطها
وقد كُتب عليه:
**بهذا تغلب
وتعتز**

يُغلبان. فلقد ابتنيت قلبك بالأعمال الإلهية، يا هيلانة، هيكلًا لله، ثم بنيت له هيكل شريفةً في المكان الذي كابد فيه المسيح، لأجلنا، الآلام الطاهرة مُتجسِّدًا».

لقد أدى قبول قسطنطين العظيم للإيمان المسيحي إلى مسخنة الإمبراطورية الرومية، أي إلى جعلها مسيحية، وإلى خلق الثقافة الرومية الرائعة، التي تنعكس عظمته الروحية في شعوب ودول البحر الأبيض المتوسط، وكذلك في الشرق الأوسط، وبالأخص في الأرض المقدسة ومركزها اورشليم، المدينة المقدسة، التي تحمل في ثناياها وطياتها نقش الرومية وختمها الذي لا يُمحى.

إنَّ الشاهد الصادق لهذا الحدث هي كنيسة اورشليم، مع طغمة المثقفين، أي أخوية القبر المقدس، التي تحمُّم وتحافظ، على مرِّ العصور، على الأماكن والمزارات المقدسة، وعلى الكنائس الفاتحة الجمال المشيدة عليها، ككنيسة ميلاد وقيامه مخلصنا يسوع المسيح. ولأنَّ هذا واجبٌ ودينٌ علينا، فقد أقمنا بطريركيًا خدمة القُداس الإلهي في كنيسة الدير المشيدة على اسمي القديسين العظميين، المُتوجِّين من الله، والمعادلين للرسل، قسطنطين وهيلانة، مع لفيف من أبناء رعايانا المسيحيين المصلين معنا، والرُّوار الأتقياء من بلاد الاغتراب.

فيا جلال ووقار عيدنا، مُكرِّمين التذكار المقدس لأفضل الملوك قسطنطين وأمه هيلانة، سائلين إياهما أن لا يتوقفنا، لما لهما من الدالة، عن الابتهاج إلى ربنا، بتوسلاتهما مع تضرعات الفائقة البركات المجيدة سيدتنا والدة الإله الدائمة البتولية مريم، من أجل مدينتنا المقدسة اورشليم، ومن أجل أن يعم السلام في منطقتنا والعالم أجمع. آمين.

كلِّمنا ونعملنا بجزيرة

البطريرك ثيوفيلوس الثالث
بطريرك المدينة المقدسة اورشليم
مَعَ أَدْعِيَتِنَا وَبَرَكَاتِنَا الأَبُوِيَّةِ

لقد رفعت حواسك نحو السماء تتعرّف جمال النجوم يا قسطنطين الجزيل الوقار فانفتحت لك من خلالها معرفة رب الكل فإن سلاح الصليب أشرق ساطعاً نوراً في وسطها وقد كُتب عليه: «بهذا تغلب وتنتصر»، فانفتحت باصرة نفسك، وقرأت الكتابة، وتعلّمت الطريق. فتشفع الآن إلى المسيح الإله أن يمنح غفران الزلات للمعيدين عن رغبة لتذكارك المقدس.

أيها الآباء الأجلاء والإخوة المحترمون، أيها المسيحيون الزوار الأتقياء، اليوم كنيسة المسيح الرومية الأرثوذكسية، ولا سيما كنيسة اورشليم تُكرم بإجلال ووقار التذكار المقدس المجيد للملكين العظميين المُتوجِّين من الله والمعادلين للرسل قسطنطين وهيلانة.

لقد ساهمت الشخصية القيادية لقسطنطين العظيم، بلا أدنى شك، مساهمة فعالة في إعادة صياغة تاريخ البشرية وتشكيله، وذلك من خلال الاعتراف بالإيمان المسيحي، وبرسالة الكنيسة ومهمتها في العالم أجمع. إذ إنَّ انعقاد المجمع المسكوني الأول سنة ٣٢٥م، تحت قيادته في نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية، بمشاركة الآباء الثلاثة والثمانية عشر المتوسِّحين بالله، يُشكّل علامة فارقة في التنظيم المؤسسي للكنيسة المجاهدة على الأرض.

ويُسلط القديس غريغوريوس الضوء على الأهمية السياسية والدينية لعمل قسطنطين العظيم، من أجل إعادة توحيد الدولة وتجميعها في إمبراطورية واحدة في الشرق والغرب، وذلك بفضل توفير الحرية للمسيحيين وللكنيسة. إذ يقول: «لقد ساهمت أعمال المسيحيين في تقدّم الإمبراطورية الرومية، من خلال دخول قوة المسيح إلى الدولة».

أمّا كاتب تسايح الكنيسة، فإنه يُنشد مُرمِّمًا عن الارتباط الوثيق، المُتميّز بحسن العبادة والتقوى، بين القديسين قسطنطين وهيلانة والأرض المقدسة، إذ يقول: «لنكرّم، يا مؤمنون، قسطنطين وأمه هيلانة، فإنهما، عند سماعهما كلام النبي، أدركا أنّ الصليب الذي به تم الموت الخلاصي، هو مُركَّب من ثلاثة أنواع: الشربين، والسنديان، والسرو. وبعد أن وجداه، أوضحا للجميع أنّهما به أصبحا مُظفَّرين لا



القسطنطينية - روما الجديدة



القديس قسطنطين الكبير والمسيحية



كنيسة القيامة المجيدة، التي أقامها القديس الإمبراطور قسطنطين الكبير، إثر اكتشاف الصليب الكريم المحمي بوساطة والدته القديسة هيلانة. المعادلة الرسل.

قسطنطين العظيم والمسيحية

إنّ الأزمة الحضاريّة والدينيّة التي واجهتها الإمبراطوريّة الروميّة في القرن الرابع تُعدّ واحدةً من أبرز الأحداث في التاريخ العالمي. فقد دخلت الحضارة الوثنيّة القديمة في صراعٍ مع المسيحيّة، تلك التي، بعدما امتحنت **بدماءً ملايين الشهداء**، نالت الاعتراف الرسمي خلال عهد **قسطنطين**، في مطلع القرن الرابع، ثم أُعلنت لاحقاً ديانةً رسميّةً للدولة على يد **القديس ثيودوسيوس الكبير**، في أواخر القرن نفسه.

وفضلاً عن ذلك، ارتبط اسم **قسطنطين** بتشييد كنائس كثيرة في مختلف أنحاء الإمبراطوريّة الشاسعة. ويُنسب إليه بناء كنيسة القديس بطرس، وكذلك بازيليك اللاتران في روما. وقد أولى اهتماماً خاصاً لفلسطين، حيث عثرت **والدته القديسة هيلانة على الصليب الحقيقي للرب يسوع المسيح**.

وأيضاً، ارتبط اسم **قسطنطين** بتشييد كنائس كثيرة في مختلف أنحاء الإمبراطوريّة الشاسعة. ويُنسب إليه تشييدُ البازيليك الأولى للقديس بطرس، في الموضع التقليدي لدفن الرسول بطرس، في روما (إيطاليا)، وكذلك بازيليك اللاتران. وفي أورشليم، في **موضع القبر المقدّس**، شُيّدت **كنيسة القيامة العظيمة والمهيبة**. وعلى جبل الزيتون بُنيت كنيسة الصعود، وفي بيت لحم أُقيمت كنيسة الميلاذ، إلى جانب مزاراتٍ مقدّسةٍ أخرى. أمّا العاصمة الجديدة، القسطنطينيّة، وضواحيها أيضاً، فقد ازدانت بكنائس كثيرة، كان من أبرزها كنيسة الرسل القديسين، وكنيسة القديسة إيريني. كما شُيّدت كنائس كثيرة أخرى في مناطق متعدّدة خلال عهد **قسطنطين**، في أنطاكية، ونيقوميذية، وشمال أفريقيا.

كان الانطباعُ الأوّل، بطبيعة الحال، أنّ هذين الطرفين، المعبرين عن رؤيتين متناقضتين تماماً، لن يجداً أبداً أرضيّةً لاتفاقيّ متبادل. غير أنّ المسيحيّة والهيلينيّة الوثنيّة امتزجتا تدريجيّاً - لا في العقائد بالطبع - وشكّلتا حضارةً مسيحيّةً - يونانيّةً، عُرفت باسم الحضارة البيزنطيّة أو الروميّة. وقد كانت القسطنطينيّة، العاصمة الجديدة للإمبراطوريّة الروميّة، مركزَ هذه الحضارة.

إنّ الشخص الذي اضطلع بالدور الأبرز في التحوّلات الكثيرة التي شهدتها الإمبراطوريّة، هو **القديس قسطنطين الكبير**. ففي أثناء حكمه، نالت المسيحيّة، للمرّة الأولى، أرضاً ثابتة من الاعتراف الرسمي. وبعد هذا الاعتراف، بدأت الإمبراطوريّة الوثنيّة القديمة تتبدّل تدريجيّاً، لتغدو **إمبراطوريّة مسيحيّة روميّة**.

لقد كان هناك حدثان في عهد **قسطنطين** أثرا تأثيراً عميقاً في المسار اللاحق للتاريخ: الاعتراف الرسمي بالمسيحيّة، ونقل عاصمة الإمبراطوريّة من ضفاف نهر التيبر إلى ضفاف البوسفور، أي من روما القديمة إلى **«روما الجديدة»**، القسطنطينيّة.

القسطنطينية روما الجديدة

صور خاصة وفريدة من أديرة جبل آثوس العامر - قلعة الرومية الأرثوذكسية

بيزنطة، تلك المدينة اليونانية القديمة الصغيرة والمغمورة، التي شيدها الميغاريون في منتصف القرن السابع قبل الميلاد. ومن مبادرة قسطنطين الكبير هذه تبدأ أيضًا حقبة الإمبراطورية الرومية الجديدة، أي الإمبراطورية الرومية الشرقية. («الميغاريون» هم سكان مدينة ميغارا (Μέγαρα - Megara) اليونانية القديمة، الواقعة بين أثينا وكورنثوس).

إنَّ مدينة بيزنطة، التي كانت يومًا مدينةً صغيرةً، أفسحت المجال لأعظم إمبراطورية في العصور الوسطى، تلك التي بقيت، **بنعمة الله**، أكثر من ألف سنة (٣٣٠-١٤٥٣). وقد تغيَّر اسم بيزنطة القديمة الصغيرة إلى القسطنطينية، تكريمًا لأول إمبراطور اختارها بسبب أهميتها الاستراتيجية والتجارية والجغرافية.

وكان قسطنطين الكبير عبقريةً عسكريةً فذة. فقد أدرك أنَّ روما القديمة لم يعد ممكنًا أن تبقى حرَّةً زمنًا طويلًا تحت ضغط الشعوب البربرية. كما أدرك أيضًا أنَّ المسيحية ستكون سندًا عظيمًا لقوة إمبراطوريته، وأنَّ من الأفضل تأسيس عاصمة جديدة في الشرق، حيث تسود الديانة الجديدة، والحضارة اليونانية، واللغة اليونانية.

وهكذا، في ١١ أيار سنة ٣٣٠م، دشَّن «روما الجديدة» التي دُعيت القسطنطينية. وقد كانت أول إمبراطورية مسيحية في العالم، ويُعدُّ تاريخها جزءًا من تاريخ الأمة اليونانية. فهي تمثل تاريخ اليونان في العصور الوسطى، الذي استمرَّ ألفًا ومئة سنة، منذ التأسيس حتَّى احتلالها على يد العثمانيين سنة ١٤٥٣م.

فإذا كانت أثينا قد أصبحت «مدرسة اليونان»، وكانت مدن «اليونان الكبرى» أولى معلّمت روما، وإذا كانت الإسكندرية منارة العالم الهيليني في مصر وفلسطين وشمال أفريقيا، وكانت أنطاكية أثينا الشرق، فإنَّ روما الجديدة، أي القسطنطينية، غدت خلاصة التراث اليوناني بأسره.

وفي جوهره، فإنَّ ما يُسمَّى بالحضارة الرومية (بدلاً من الرومانية) ليس

في سنة ٣١ قبل الميلاد، حين هُزمت كليوباترا، آخر ملكة من سلالة البطالمة، مع ماركوس أنطونيوس على يد أوكتافيانوس أغسطس في معركة أكتيوم البحرية، اكتمل خضوع العالم اليوناني للإمبراطورية الرومانية. فبعد أن بسطت روما سيطرتها على اليونان، ثم على آسيا الصغرى ومملكة السلوقيين، وأخيرًا على مملكة البطالمة، أصبحت القوة السياسية العظمى في العالم المتوسطي، بعد أن كانت قد أخضعت أيضًا المدن اليونانية في إيطاليا الجنوبية والقرطاجيين.

غير أنه ينبغي أن نذكر مرةً أخرى بأنَّ الهيلينية فقدت حريتها السياسية، لكنها رحبت المعركة في ميدان الثقافة. لم يبق الهيلينيون أحياء كامة فقط، بل ازدهروا أيضًا، وأثروا بعمق في الحضارة الرومانية، حتَّى إنَّهم غيَّروا الملامح الثقافية لروما القديمة نفسها. فأباطرة أكفاء، مثل ترايانوس، وهادريانوس، وماركوس أوريليوس، لم يكونوا أنصارًا متحمسين للثقافة اليونانية فحسب، بل كانوا أيضًا يتكلمون ويكتبون باللغة اليونانية.

ومع اعتلاء كومودوس العرش الإمبراطوري في روما سنة ١٨٠م، انطوت مرحلة «الاستقرار والرخاء الروماني» (Pax Romana)، وبدأت ملامح الانحلال تظهر في الإمبراطورية الرومانية الغربية. وكان القرن الثالث قرن الغزوات البربرية، والحروب الأهلية، والأزمات الاقتصادية، والاضطرابات الاجتماعية، إلى درجة أنَّ نهاية العالم القديم كانت ستتجلُّ، لو لم يتولَّ ديوكليتيانوس زمام السلطة الإمبراطورية؛ ذلك الذي عُدَّ واحدًا من سقَّاكي دماء المسيحيين، والذي أعاد، ما بين سنتي ٢٨٤ و٣٠٥م، تنظيم الدولة المترامية الأطراف و«بعثها إلى الحياة» - ولكن بدماء المسيحيين.

وكان ديوكليتيانوس أول من نقل مقرَّ الحكم من روما إلى الشرق اليوناني، إلى نيقوميذية في آسيا الصغرى. ثم جاء قسطنطين الكبير فتابع العمل الإصلاحية الذي بدأه سلفه، لا على مبادئ العالم الوثني القديم، بل على أسس المسيحية، فنقل العاصمة من نيقوميذية إلى

سوى حضارة يونانية متمسّحة. لقد أصبحت الروميّة مدرسةً لشعوب بربرية كثيرة، ولا سيما السلاف. فمع المسيحية منحهم أيضًا عناصر الحضارة، وأدخلتهم إلى مسرح التاريخ.

والروميّة هي المحطة الثالثة من أعظم محطات للمسيرة التاريخية للأمم الهيلينية الروميّة. فلكل مرحلة، ولكل عصر؛ سواء أكان قديمًا أو كلاسيكيًا أو هيلينيًا أو روميًا أو حديثًا؛ ديناميكيته الخاصة وسماته المميّزة.

القسطنطينية، لم تكن بالطبع أثينا الكلاسيكيّة، ولا الإسكندرية أو أنطاكية الهيلينيتين، لأنّها كانت كلّ ذلك معًا: تركيبًا جامعًا، وفسيفساء حيّة لكلّ ما هو جميل ورثته من الهيلينية القديمة. غير أنّها ورثت أيضًا القدرة التنظيميّة والتقليد العسكري لروما القديمة، كما ورثت الغنى الديني لفلسطين، أي الحقيقة المُعلنة للإنسان-الإله، التي أعطيت للبشرية تمامًا على شفير انخيار العالم القديم. وهكذا كانت الإمبراطوريّة الروميّة كيانًا ثلاثيّ البنية:

† يونانيّة في اللغة، والتربية، وإلى حدّ كبير في تكوينها القومي؛

† وروميّة في نظامها السياسي والتشريعي والعسكري

† ومسيحيّة في دينها ونظرتها المتجهة نحو الأبدية.

«فأئى شيءٍ كان يمكن أن يكون أكثر مثاليّة من هذه المدينة؟»

إنّ القسطنطينيّة لم تُنجب فلاسفة ذوي أصالة فكرية على مثال أناكساغوراس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، ولم تُنجب أيضًا نحّاتين وفتّانين أمثال براكسيتيليس، وفيدياس، وإكتينوس، وكالكراتيس، ولا علماء كالذين ظهروا في الإسكندرية. غير أنّها أنجبت شعراء ومرمّمين من الطراز الأول، ولاهوتيين وموسوعيين، ومفكرين وصوفيّين، لم تكن أهمّيّتهم أمرًا عابرًا أو وليد الصدفة. كما أنجبت قديسين عظامًا. صحيح أنّها لم تُبدع ابتكاراتٍ جديدة، لكنّها حفظت التراث القديم. الكلاسيكي والهيليني. وشرحته وقتنته وصاغته في أطرٍ منظّمة. وقد حال عاملان دون أن تُقدّم «روما الجديدة» - القسطنطينيّة على الابتكار: الأوّل هو الرهبة العميقة أمام التراث الكلاسيكي، أمّا الثاني، والأهمّ، فهو التعليم السامي والإعلاني الذي جاء به المسيحيّة.

كان الرُوم يتساءلون: من يستطيع أن يتفوّق على أفلاطون في قوّة الفكر، وعلى أرسطو في المنطق السليم ودقّة الملاحظة؟ ثمّ إنّ تعليم المسيحيّة، المكتوب والشفهي، ما دام يحتوي على الحقيقة الموهوبة من الله بكاملها، فلماذا نُطلق عقولنا في قلقٍ وبحثٍ باطل، ما دامت الأجوبة الأساسيّة والجوهريّة عن الأسئلة الوجوديّة الكبرى. مثل: من أين أتينا؟ من نحن؟ وإلى أين نمضي؟ ؛ قد أعلنها لنا الإله-الإنسان بنفسه؟ أمّا القدماء، فلم يعرفوا الحقيقة في هذه القضايا، ولذلك ظلّوا في بحثٍ دائمٍ وقلقٍ لا يهدأ.

لذلك بقيت القسطنطينيّة وقيّة للتقليد ومحافظّة على طابعها، ولم تُهدر قواها في أعمالٍ دينويّة باطلّة تسعى وراء مجد العالم الفاني. لكنها حفظت تراث العصور القديمة وصانته كحدقة العين، ذلك التراث الذي كان، كما سبق أن قلنا، تمهيدًا لفهم المسيحيّة وقبولها. كذلك أبدعت وابتكرت في الفنون الدينيّة، وفي الفكر الديني والشعر. وإنّ مجرد إنقاذ

كنوز اليونان القديمة من الضياع والتلف يكفي لكي يستحقّ هذا الإرث امتناننا جميعًا. لقد أحسنت القسطنطينيّة، أي الروميّة الشرقيّة، إلى الشرق والغرب معًا. ويقول الباحث الشهير في الحضارة الروميّة، يوليوس مورافتسيك: «لقد علّم اليونانيون أوروبا مرّتين: الأولى من خلال البارثينون، رمز العبقرية اليونانية القديمة، والثانية من خلال آيا صوفيا، رمز الحضارة البيزنطيّة».

ملحوظة: البارثينون هو المعبد الأشهر في أثينا القديمة، شُيّد في القرن الخامس قبل الميلاد فوق هضبة الأكربوليس، تكريمًا للإلهة أثينا، حامية المدينة. ويُعدّ من أعظم رموز الحضارة اليونانية الكلاسيكيّة، ومن أروع نماذج العمارة القديمة في العالم.

كلمة «بارثينون» مشتقة من كلمة: بارثينوس أي: «العدراء» أو «البتول»، لأنّ أثينا كانت تُدعى: أثينا بارثينوس، أي «أثينا العذراء». وقد أصبح البارثينون رمزًا: للفكر اليوناني، وللتناسق الهندسي، وللجمال الكلاسيكي، وعبقرية الإنسان في الفنّ والعمارة. والباحث، يُقارن البارثينون بآيا صوفيا: فالبارثينون يمثّل قمة العبقرية اليونانية القديمة. أمّا آيا صوفيا فتمثّل قمة الحضارة الروميّة الأرثوذكسية. ولذلك قال الكاتب إنّ اليونانيين «علّموا أوروبا مرّتين»: مرّة عبر البارثينون، ومرّة عبر آيا صوفيا. (انتهت الملحوظة)

غير أنّه ينبغي أن نُضيف أيضًا أنّه، خلالًا لأثينا القديمة، وإسبرطة، وسيراكوزا، وطبيّة، وغيرها من مدن الهيلينية القديمة، كانت بلاد الروم، ولا سيّما الإسكندرية وأنطاكية، مراكز حضاريّة علميّة الطابع. فلم تكن مأهولةً باليونانيين والمُتهلّنين فقط، بل أيضًا بجماعاتٍ قوميّةٍ ودينيّةٍ متنوّعة: كالأرمن، واليهود، والأقباط، والسريان، والسلاف. ومع ذلك، فإنّها لم تكفّ يومًا عن أن تكون مدناً يونانيّة الروح، ومراكز للحضارة الروميّة الأرثوذكسيّة.

غير أنّ الحضارة الروميّة قد لحّصت في ذاتها جميع التقاليد الحضاريّة، وكلّ ما كان قد بلغ شأنًا رفيعًا من الإنجازات في مختلف ميادين المعرفة الإنسانيّة حتى ذلك الحين. أمّا عظمة الحضارة الروميّة الحقيقيّة، فبعد الاعتراف بالمسيحيّة دينًا رسميًا لروما الجديدة، تجلّت في القداسة؛ أي في تجاوز أباطيل الأرض الزائلة، وفي الوعي لإعلانات الله الخالق، المثلث الأقانيم. كما تجلّت في ارتقاء أهل الإيمان إلى القداسة والحكمة السماويّة.

إنّ ارتقاء الإنسان من الفلسفة إلى حكمة الله، أي إلى معرفة الله ومعرفة الإنسان، إلى المعرفة الحقيقيّة بالله، وبالإنسان، وبالخليقة كلّها، هو السموّ الحقيقي الذي ميّز الحضارة الروميّة.

لقد كانت الفلسفات السابقة، وإنجازات الحضارات التي سبقت، مراحل انتقاليّة وتربويّة للبشرية، هكذا دبرتها عناية الله، لكي تجعل الناس قادرين على قبول الحقيقة المُعلنة في الإله-الإنسان، يسوع المسيح. لذلك، فإنّ الحضارة الروميّة هي ذروة جميع الحضارات، ولن تقوم حضارةٌ أخرى مثلها؛ لأنّ جوهرها يتلخّص في تعاليم آباء الكنيسة. وستبقى الكنيسة الروميّة الأرثوذكسية، الواحدة، المقدسة، الجامعة، الرسوليّة، كنيسة المسيح، حارسةً لهذا المجد، ولهذا الحضارة، إلى انقضاء الدهر. غير أنّه لا يجوز أن نطابقها مع الأشخاص الذين هم عُرضة للسقوط.

كنيسة الحكمة الإلهية أجيا صوفياً



رفيعة، وكانا «متمرسين في فنون البناء والإنشاء» أدخل طراز البازيليك المقببة الحديد، مع هندسة مدهشة مقاومة للزلازل، وهيبة عظيمة يمنحها الحجم الضخم للكنيسة، الممتدة بطول ٨٠,٩٠ متراً، وعرض ٦٩,٥ متراً، وارتفاع ٥٥,٦ متراً. وتنقسم إلى ثلاثة أروقة، إضافة إلى الساحة الداخلية، والنارثكسين، وصحن الكنيسة الرئيسي، وتتوسطها قبة هائلة قطرها ٣١ متراً وارتفاعها ١٣,٨ متراً، تستند إلى أربعة أعمدة ضخمة على ارتفاع ٥٤ متراً، وتحيط بها أربع قناطر، وأربعون نافذة تزيد من توازنها وثباتها الهندسي.

وهكذا نجحنا في تحقيق تنسيق هندسي حكيم بين العناصر المعمارية المختلفة، مكّنهما من تشييد صرح هائل يتمتع بمتانة جعلته يبقى، بعد مرور خمسة عشر قرناً، شبه سليم إلى يومنا هذا. والأعجب من ذلك أن هذا العمل الباهر أنجز خلال خمس سنواتٍ وعشرة أشهرٍ وأربعة أيامٍ فقط، وقد دُشنَ باحتفالٍ مهيبٍ في ٢٧ كانون الأول سنة ٥٣٧م.

وقد شارك في تشييدها عشرة آلاف عاملٍ وحرفي، ومئة معلمٍ من كبار البنائين، وأجود المواد، إلى جانب إشراف المهندسين، بل والإمبراطور يوستينيانوس نفسه، في الوصول إلى أروع نتيجةٍ ممكنة.

ويُروى أن الإمبراطور قد امتلأ حماساً وابتهاجاً يومَ التدشين، حتى إنه هتف قائلاً: «المجد لله الذي أهلني أن أتم عملاً كهذا. لقد غلبتُك يا سليمان!». ولم يكن يقصد بذلك التفاخر الشخصي، بل التعبير عن عظمة كنيسة الحكمة الإلهية «آيا صوفيا»، التي رآها تفوق، في بائها وجلالها، هيكل أورشليم الذي شيده سليمان الحكيم، ابن داود النبي.

ولأجل تشييدها استُخدمت أجود المواد، التي جُلبت من مختلف أنحاء الإمبراطورية: رخامٌ أبيض ومتعدد الألوان، وجرانيتٌ أرجواني، وحجارةٌ خضراء وبيضاء. وكانت الزخرفة البديعة لداخل الكنيسة تكتمل بالمنبر ذي الطراز المسيحي القديم، وبأماكن المرتلين، وبالجازر الرخاميّ المزدان بالقناديل الكثيرة، وبالمدابح المقدسة التي تعلوها المظلات الطقسية. كما أضفى التزيينُ الفسيفسائيّ (الموزايكيّ) روعةً لا تُوصف على مواضع

كنيسة الحكمة الإلهية المقدسة في القسطنطينية الرومية تُجسد التعبير الإفخارستي للإنسان تجاه الإلهي، من خلال ذلك التناغم العجيب بين المعرفة العلمية والجمال، في التركيب الفريد لأثنى المواد، وفي الإبداع الكنسي الذي يعكس بهاء الحكمة الإلهية، ولا سيما أيقونة السيدة الفاتكة القداسة والدة الإله، وأيقونة المخلص يسوع المسيح، إلى جانب الرموز الكنسية العريقة: الصليب ذي الأشعة الرباعية والثمانية، ورمز الثالوث المقدس، والسداسية ذات البعد اللاهوتي والكوني، في رؤية الإله الواحد الصالح، رب الكون كله.

إنها تُعدّ التحفة الكبرى في العمارة الرومية، وأحد المعالم الإنسانيّة الخالدة في التراث الحضاري العالمي. وهي، بالنسبة إلى اليونانيين، رمزٌ تاريخي متواصل للإمبراطورية الرومية المسيحية، وللرجاء الكامن في العبارة الشهيرة: «بعد سنينٍ وأزمنةٍ، ستعودُ لنا من جديد». في إشارة إلى الرجاء الرومي بعودة مجد القسطنطينية وآيا صوفيا.

في الموضوع الذي كانت تقوم فيه سابقاً كنيسة «الكنيسة العظمى»، التي شيدها كونستاس، ابن قسطنطين الكبير، سنة ٣٦٠م، والتي أحرقت سنة ٤٠٤م، أعيد بناء كنيسة جديدة على طراز البازيليك في عهد ثيودوسيوس الثاني سنة ٤١٥م. غير أن هذه الكنيسة أيضاً احترقت خلال «ثورة نيقا» سنة ٥٣٢م. وبعد إخماد التمرد، بدأ الإمبراطور يوستينيانوس، في شباط سنة ٥٣٢م، بتشيد كنيسة ذات طراز معماري جديد، كان يُعدّ أمراً فريداً وغير مسبوق تماماً.

لقد وُضع أساس كنيسة الحكمة الإلهية سنة ٥٣٢م، ودُشنت سنة ٥٣٧م على يد الإمبراطور يوستينيانوس، بوصفها إحدى عجائب العالم. ويُعتبَر هذا الصرح، التحفة الكبرى في العمارة الرومية، ثمرة إلهام إلهي، إذ تتحدث الروايات عن رؤيا انكشفت للإمبراطور يوستينيانوس، وعن إرشاد ملائكي في تصميم كنيسة الحكمة الإلهية. وقد أُسند المشروع إلى المهندسين المتميزين من آسيا الصغرى: أنثيميوس من ترالس، وإيسيدوروس من ميليتوس، اللذين كانا يتمتعان بثقافة فينية

ومن بين الملحقات التابعة للكنيسة المقدّسة، كانت هناك أيضًا النافورة الفنيّة المعروفة باسم «الفيالة»، والمزيّنة بالنقش الشهير: «اغسل خطاياك، لا وجهك فقط» (وهي عبارة تُقرأ بالطريقة نفسها أيضًا من النهاية إلى البداية). (الصورة أسفل).



ΝΙΨΟΝΑΝΟΜΗΜΑΤΑΜΗΜΟΝΑΝΟΨΙΝ
«اغسل خطاياك، لا وجهك فقط»

إنّها تُقرأ حرفيًا بالطريقة نفسها من البداية إلى النهاية، ومن النهاية إلى البداية. أي أنّها باليندرومي **palindrome** كامل أي متناظر لفظيًا، (باليندرومي = متناظر)، وليس شبه متناظر فقط. **فالعبرة:**

ΝΙΨΟΝΑΝΟΜΗΜΑΤΑΜΗΜΟΝΑΝΟΨΙΝ

إذا قلبتها حرفًا حرفًا، تبقى نفسها تمامًا. ولذلك تُعدّ من أشهر العبارات المتناظرة في التراث الرومي واليوناني.

وفي سنة ١٢٠٤م تعرّضت الكنيسة، كما المدينة الإمبراطورية بأسرها، لنهب رهيب على يد الصليبيين الغربيين خلال الحملة الصليبية الرابعة، وهم من الفرنسيين والألمان والبنادقة والجنوبيين والصقليين والإسبان والهنغارين، الذين احتلوا الدولة الرومية وفرضوا قهراً الإمبراطورية اللاتينية. وقد نُقلت كنوز القسطنطينية المنهوبة إلى الغرب، وزُيّنت بها مئات الكنائس والأديرة. وفي سنة ١٢٦١م استعاد الروم القسطنطينية، غير أنّ الدمار الذي خلفه اللاتين جعل الدولة عاجزة عن ترميم بنيتها الأساسية، فكانت النتيجة احتلال المدينة على يد العثمانيين. في ٢٩ أيار سنة ١٤٥٣م، مع خسائر مروّعة في الأرواح وفي أعظم منجزات الحضارة الرومية. وبعد ذلك حوّلت كنيسة الحكمة الإلهية إلى مسجد، إلى أن أعلنت متحفًا سنة ١٩٣٤م. وفي سنة ١٩٨٠م أعلنتها اليونسكو معلّمًا من معالم التراث الحضاري العالمي، فزادت أهميتها وزيارات الناس إليها من مختلف أنحاء العالم.

غير أنّ الكنيسة تواجه اليوم تهديدًا جديدًا بالطمس، نتيجة السياسات التركية الحديثة الرامية إلى إعادة تحويلها إلى مسجد إسلامي، في خطوة يعتبرها كاتب النصّ مخالفةً للاتفاقيات الدولية ولمكانة الحكمة الإلهية كتراث إنساني عالمي.

كما يوجّه النصّ انتقادات حادة إلى منظّمة اليونسكو وبعض القيادات الكنسية، متهمًا إيّاها بالتقصير في الدفاع عن هذا الصرح

التاريخي الرومي الأرثوذكسي. ■

كثيرة من الجدران. فقد تكوّنت تلك الكتابات (الأيقونات والرسومات) من قطع صغيرة مصنوعة من شظايا زجاجية ملوّنة مُعالجة بعناية، ومن صفائح رقيقة من الذهب والفضّة، شكّلت أيقونات فريدة لوجوه إلهية، وقديسين، وبطاركة، وأباطرة، أُنجزت بين القرن السادس والقرن الثالث عشر.

وقد أنفقت عليها ثروة هائلة بلغت ٣٦٠ مليون دراهمة ذهبية. ومن أبرز ما يميّزها الموادّ النفيسة التي استُخدمت فيها: الذهب، والفضّة، والعاج، والأحجار الكريمة، والرخام الملّون الذي زيّنت به الأعمدة والجدران. كما أضفت الفسيفساءات البديعة للعدراء **ويسوع المسيح**، المصنوعة من قطع ذهبية متألّفة، رهبةً روحية فريدة، وزاد المشهد روعةً ذلك النور الغامر الذي يفيض داخل الكنيسة من نوافذها الكثيرة. وكان الهيكل المقدّس مزدانًا بأقمشة ليتورجية مذهبة بالغة الجمال، أمّا الثريا الكبرى ذات الآلاف من الشموع فكانت تتلألأ ليلاً بصورة مهيبه، حتى إنّ نورها كان يُرى من بعيد كأنه منارة تحدي البحارة.

وتتميّز كنيسة الحكمة الإلهية بوجود الرواق الخارجي، والرواق الداخلي، وضحن الكنيسة الرئيسي، والهيكل المقدّس. كما أنّ تصميمها الهندسيّ يكاد يكون مربع الشكل (٧٧×٧٢ مترًا). وتغمرها الإضاءة عبر نوافذ كثيرة موزّعة على محيطها، إضافةً إلى أربعين نافذة في القبة الكبرى، تمنحها انطباعًا بأنّها معلقة في الفضاء.

في هذه الكنيسة العظيمة، التي شهدت على مدى قرون أيام مجدٍ باهر وأزمة ألم مرير عاشهما الهيلينيين الأرثوذكس في العصرين الرومي والوسيط، كان يخدم فيها: ٨٠ كاهنًا، و١٥٠ شماسًا، و٤٠ شماسًا، و٧٠ شماسًا مساعدًا، و١٦٠ قارئًا، و٢٥ مرتلًا، و٧٥ بوابًا، أي ما مجموعه ٦٠٠ شخص. أمّا اليوم، وبعد خمسة عشر قرنًا من التاريخ، فما تزال كلُّ نفسٍ أرثوذكسية تتوجّه بفكرها وحنينها إلى الحكمة الإلهية، هذا الرمز العريق للتطلّعات الدينية والقومية. وتستحضر أيضًا الأساطير والتقاليد الموروثة، والليتورجيا الإلهية التي لا تنقطع، والملك المخلّص، وتلك التطلّعات القومية التي لم تتحقّق بعد.

(المترجم: المقصود بهذا المقطع أنّ النفس الأرثوذكسية، حين تتذكّر الحكمة الإلهية، لا ترى مجرد بناءٍ تاريخي، بل تستعيد في داخلها التراث الرومي القديم، والأساطير والتقاليد الشعبية المرتبطة بالقسطنطينية، والرجاء بعودة الليتورجيا الإلهية إلى الحكمة الإلهية، وفكرة «الملك المخلّص» الموجودة في بعض التقاليد الشعبية الرومية، وكذلك الآمال القومية التي بقيت غير مكتملة بعد سقوط القسطنطينية. أمّا كلمة «تستحضر» فتعني: تستدعي إلى الذاكرة، أو تُحيي في الذهن والمشاعر، أو تتذكّر بعمق.)

وكانت كنيسة الحكمة الإلهية في القسطنطينية، كما ذكرنا تُقام فيها الخدمة بواسطة نحو ستمئة من الكهنة والخدام، وتتسع لنحو ثلاثة وعشرين ألف شخص، مع تمتّعها بخصائص صوتية مذهشة أثناء إقامة الصلوات. وتشير أبحاث حديثة إلى وجود منشآت تحت الأرض وممرات تؤدّي إلى جزر الأمراء، استُخدمت كمنافذ نجاة للبشر والأواني المقدّسة في أوقات الغزو.

الحضارة الرومية «علامة تقاوم»

(انظر - لوقا ٢ : ٣٤)

رسمٌ تاريخيٌ لداخل كنيسة ينيوع والدة الإله
في بالوكلي - القسطنطينية،
يُصوِّر حضورَ الرومية الأرثوذكسية
في الحياة الكنسية والليتورجية،
ويعودُ إلى سنة ١٥٥٨م.

في القرن التاسع، ألف المرتل يوسف تسيحةً خاصةً لوالدة الإله، سماها «ينيوع الحياة». ومنذ ذلك الحين، شاع هذا اللقب أيضاً للعدراء مريم. وإحياءً لذكرى تدهشين الكنيسة، تبت الكنيسة الأرثوذكسية عيداً يُحتفل به يوم الجمعة من أسبوع التجديدات (الجمعة التالية للفتح).

الحضارة الرومية علامة تقاوم:

لم يخضع لمثل هذه الحدود، لأنه كان يسعى إلى التعبير عن أمورٍ تتجاوز المقاييس المألوفة التي ينحصر ضمنها تصويرُ العالم المادي، مهما بلغت دقته أو بلغت حرارة العاطفة فيه. إذًا، فإنَّ الحضارة الرومية أمرٌ عظيم بحق. إنَّها العالم الذي عاش فيه الناس وهم يتوقون إلى ما فوق الطبيعة، إلى الأبدية. ولهذا تحمل تلك الخصوصية الغريبة والمفعمة بالأسرار، التي لا يستسيغها أولئك الذين لا تتجاوز تطلعاتهم حدود المقاييس العقلية والمنطق المجرد، أي الذين بقوا أسرى رتابة الانفعالات المادية والمألوفة.

كان الرُّوم يؤمنون بالأسرار المقدسة والحقيقة التي أعلنها المسيح، أي بذلك العالم العجيب الكائن وراء حدود ما تدركه الحواس والعقل البشري. أما الإنسان القديم فكان يقف عند هذه الحدود ولا يتجاوزها. لقد جعل سقراط العقل أساساً في مقارنته الفلسفية لمسألة الإله والوجود، ولم يكن يؤمن بما لا يقبله ذهنه، أي بما يتجاوز المنطق البشري، كالمعجزة مثلاً. ولذلك، فإنَّ الإنسان القديم، رغم كلِّ ما قاله عن الحرّية، بقي في الواقع عبداً للعقل وحده، ذلك العقل الذي يُعدّ آخر حدود الضرورة البشرية. أما المسيحي في بلاد الرُّوم، فعلى الرغم من أنَّ حياته لم تكن تحمل تلك الشعارات الصاخبة والباهرة عن الحرّية، إلاَّ أنه كان يشعر في أعماقه بالحرّية الروحية الحقيقية، بحسب قول الرسول بولس: «وَحَبِّثُ رُوحَ الرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةً.» (٢ كو ٣: ١٧).

يكتب أحد قديسي بلاد الرُّوم، وهو القديس يوحنا السلمي: «إنَّ بحر العقائد عميقٌ جداً، لكنَّ عقل المسيحي يقفز فيه بلا خوف». أمَّا بارمنيدس العميق الفكر وأمثاله، فلم يكونوا ليحزروا على القفز إلى هذه الهوة، لأنَّهم كانوا مقيدين بقيود المنطق العقلي.

إنَّ العالم القديم هو مملكة العقل والمنطق، أما بلاد الرُّوم فهي مملكة الإيمان، والنشوة الروحية، والخلود. ويتجلّى هذا الأمر بوضوح شديد في فنِّ كلِّ واحدٍ من هذين العالمين. فكما أنَّ سقراط لم يكن ليستطيع أن يتقبَّل الأسرار التي تبدو للعقل متناقضة، والتي كان يكرز

إنَّ بلاد الرُّوم، بتألقها المتفرد في التاريخ، وقفت كظاهرة استثنائية تتجاوز القوالب المعتادة التي اعتاد الإنسان أن يقيس بها أنظمة المجتمعات البشرية. فبالنسبة إلى بعضهم، كانت الحضارة الرومية عالماً عظيماً ومهيئاً، لا في الحياة الدينية فحسب، بل في الحياة الزمنية أيضاً، حتى بدت كأنها عالمٌ أسطوريٌّ أخاذ. أمَّا آخرون فرأوا فيها تشويهاً للعالم القديم وانحرافاً عن الحضارة الكلاسيكية. غير أنَّ الذين اعتبروها انحداً عن العصور القديمة، إنَّما حكموها بمقاييس لا تنسجم مع طبيعتها الحقيقية، ولا مع الجوهر الذي قامت عليه.

لقد كانت بلاد الرُّوم ظاهرةً بالغة الخصوصية والتفرد، غير أنَّ كثيرين حكموها بالمقاييس نفسها التي يُحاكم بها العالم القديم، مع أنَّ لذلك العالم طبيعةً مختلفةً كلياً. وهكذا وقعوا، بصورة غير منطقيّة، في اعتبار الحضارة الرومية مجرد امتدادٍ مشوّه للعالم القديم. والحقيقة أنَّ مقدار الاختلاف القائم بين المسيحية والوثنية، هو نفسه مقدار الاختلاف الفاصل بين الحضارة الرومية واليونان القديمة.

إنَّ الناس الذين عاشوا في بلاد الرُّوم، مع أنَّ كثيرين منهم كانوا ينحدرون من الأصل اليوناني القديم نفسه، ويحملون الثقافة اليونانية، إلاَّ أنَّهم كانوا في حقيقتهم أناساً مختلفين كلياً، «أناساً جددًا يتكلمون بألسنة جديدة». فديونيسيوس الأريوباغي لم يكن يشبه سقراط البتة، ولا سمعان المتبالة من أجل المسيح يشبه ديوجين الكلب، ولا القديس ديميتريوس يشبه بيلويداس (قائدٌ وسياسيٌّ يونانيٌّ شهير من مدينة طيبة القديمة، عاش في القرن الرابع قبل الميلاد).

لقد تأسست الحياة الإنسانية في بلاد الرُّوم على أساسٍ مختلف. وكذلك فإنَّ الفنَّ الرومي، رغم كلِّ العناصر الخارجية التي استعارها من الفنِّ القديم، يبقى مختلفاً عنه اختلافاً جوهرياً في جوهره وروحه. فقد بلغ مستوى من الروحانية لم يعرفه العالم له مثيلاً من قبل. وبينما كان الفنُّ القديم قائماً على المقاييس والتناسق والنسب، فإنَّ الفنَّ الرومي

تواضع، ومن دون رجاء؟ ولهذا كان **الرسول بولس** يقول إنَّ الأمم، أي الوثنيين، كانوا «لا رجاء لهم».

أما في **بلاد الرُّوم**، فقد كان **الملِكُ نفسه** يترك العرش وينطلق إلى البرِّيَّة مرتدياً ثياباً باليةً من شعر الماعز، وكان يفرح لأنَّه «تحرَّر من عبوديَّة الفساد». وهكذا «أزهت البرِّيَّة كالسوسنة»، لأنَّ «حياة الساكنين في البراري مغبوبة، إذ يحملهم الشوق الإلهي على أجنحته». وكلُّ هذه الأمور «الجديدة والعجيبة» إمَّا ظهرت لأنَّ **الإيمانَ بالمسيح** غير الإنسانَ تغييراً جذرياً، ورفع أشواقه من الأرضيات إلى السماويات، بعد ظهور **الإنجيل** في العالم.

إنَّ اليونانيين القدماء، رغم قوَّة عقولهم ودقَّة تفكيرهم، ورغم ما امتلكوه من حساسيَّة مرهفة، لم يستطيعوا أن يُبصروا بوضوح ما وراء أسوار المدينة الأرضيَّة، لأنَّ ذاك الذي قال للبشر: «أتيتُ إلى العالم لكي يُبصر الذين لا يُبصرون. وبدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً»، لم يكن قد أتى بعد. ولذلك بقيت لدى القدماء صورةٌ غير واضحة **عن الله وعن الحياة الأخرى**.

في نفوس أهل **بلاد الرُّوم** كانت **الحياة في المسيح تحمل الإيمان الحقيقي**، وكانت الحياة الآتية ماثلةً بوضوح أمامهم، فيما كانت عيونهم تتجه باستمرار نحو أورشليم السماويَّة العليا. وكلُّ ما صنعوه من أعمالٍ مدهشة في الفنون، وكلُّ ما احتفلوا به من أعيادٍ ومواسم، لم يكن سوى تهيئةٍ مسبقة وتذوِّقٍ أوَّلِي لتلك الطوباويَّة الآتية.

كان الإنسانُ وآماله ينجذبان بثقةٍ نحو الأبدية. وكانت **الحضارة الروميَّة** مغمورةً بتلك السحابة النيرة التي ظلَّت **الرسَل الثلاثة في تحليّ المسيح على جبل ثابور**. وهكذا أصبحت القداسة، والنسك، والطوباويَّة حقائق حيَّة في حياة الناس، ولم تعد مجرد رموزٍ أخلاقيَّة كما كانت من قبل.

وحتى **كلماتُ اللغة اليونانيَّة** نفسها تقدّست بما حملته من معاني مقدّسة، فاكتمست دلالاتٍ لم تكن تعرفها من قبل، دلالاتٍ سرِّيَّة وعميقة وروحيَّة. وهكذا صار الإنسان أكثرَ توجُّهاً نحو الداخل، ونزل إلى أعماق ذاته، فعرف نفسه، لا بالطريقة التي أرادتها الفلسفة القديمة من خلال التفتيش العقلي في خفايا النفس، بل من خلال **العشق الإلهي** الذي كان يقول له: «أنتم هيكلٌ للروح القدس». وبالتواضع صار الإنسان أكثرَ إحساساً بالألم الداخلي وبانسحاق القلب، فوجد خلاصه **في الغفران والتوبة**. ولم يعد يقف كأنانيّ متكبر، كتمثالٍ جامدٍ ومتغطرس، بل صار يسقط ويقوم باستمرار.

كان الأميرُ يعتنقُ الحياةَ الرهبانيَّة، ويخضعُ بتواضعٍ لذلك الذي كان بالأمرِ عبده، وكانت الزانيةُ تنزِّين من جديد بأزهار البتوليَّة، وكان الشعبُ يجثو ليقبَل قدمي ذاك الذي عدَّبه. لقد كانت **الحضارة الروميَّة** أشبه ببتوقَّة عظيمة، ذابت فيها نفوسٌ لا تُحصى، كما تذوب المعادن المختلفة، واحتلّطت فيها شعوبٌ وأممٌ شتى، فخرج منها ذهبٌ نقيٌّ متألئ، إلى جانب شوائب سوداء. غير أنَّ ذلك الذهب كان أنقى من كلِّ ذهبٍ خرج يوماً من بوتقة. **ومنهُ صنعت المنارة ذات السرج**

السبعة التي ستضيء العالم إلى دهر الدهور. ■

بها **الرسول بولس**، رغم قوله بإيمانه بالإله الواحد، كذلك أيضاً لم يكن بوسع براكسيتيليس وأبليس أن يفهما **الأيقونة الروميَّة**، لأنَّها ليست مبنية على المقياس المادّي المحض. فالإنسان القديم لم يكن قادراً على إدراك شيءٍ يتجاوز «التناسق الجسدي» والمفهوم المألوف للجمال الحسّي. ولذلك، فإنَّ **أروع فسيفساءات كنيسة الحكمة الإلهيَّة في القسطنطينية، وكنائس رافينا الروميَّة (شمال إيطاليا)، وأبلغ الوجوه التعبيريَّة في جداريات ميستراس**، كانت ستبدو للقدماء أعمالاً مشوَّهة وخشنة الصنعة، «تُفسد النظر» بحسب مقياسهم الفنيَّة.

(**المترجم: رافينا**: مدينة إيطاليَّة تاريخيَّة كانت مركزاً مهمّاً للحضارة الروميَّة المسيحيَّة في الغرب، وتشتهر بكنائسها وفسيفساءاتها الروميَّة القديمة التي تُعدُّ من أروع نماذج الفنِّ الكنسيِّ المسيحي المبكر. **ميستراس**: مدينة روميَّة تاريخيَّة في اليونان، اشتهرت بكنائسها وأديرتها المزينة بجداريات وأيقونات تُعدُّ من أرقى نماذج الفنِّ الرومي الأرثوذكسي في العصور المتأخّرة.)

لقد جعلت **المسيحيَّة الرُّوميَّة الإنسان «الديونيسيّ والأبولونيّ»** أرقى وأسمى، ووَجَّهته نحو أعماق ذاته الداخليَّة، ومنحته «عيناً روحيَّة وأذناً روحيَّة»، لكي يغوص في أعماق الروح ويضعي إلى «الأصداء الإلهيَّة». ولهذا فإنَّ إنسان **الحضارة الروميَّة** يختلف عن الإنسان القديم اختلافاً جوهرياً، ولا يجوز أن يُقاس بالمقياس نفسه. وكانت **الحضارة الروميَّة** أوَّل من فتح «الباب المغلق» (معرفة الأسرار الإلهيَّة والخلاص بالمسيح)، فأتيح للإنسان أن يعاين تلك الأسرار العجيبة التي أعلنها **المسيح** إنَّ حكماء العالم القديم وعقلاءه لم يستطيعوا أن يروها. **أما القسطنطينيَّة** فهي «صهيون المقدّسة، أمِّ الكنائس، ومسكنُ الله». فقد اشتعلت الخطيئة والأهواء داخل أسوارها بعنفٍ شديد، غير أنَّ نورَ القداسة كان يسطع فوق الكثيرين كعشرٍ مغمورٍ بأشعة الشمس. وحتى رائحة الانحلال الثقيلة كانت تُغطّي بعطر الحياة الروحيَّة الركيَّة والعذبة. فقد تحدّث كثيرون من قدماء العالم عن بطلان هذا العالم وزواله، لكنَّ أحدًا منهم لم يؤمن بذلك إيماناً حقيقيّاً يدفعه إلى التخلّي عنه، باستثناء **ديوجين**، الذي تظاهر هو أيضاً بازدراء العالم، لا حبّاً بالحقِّ، بل ليشيع كبريائه الباطني. وهكذا صار «كلباً»، أي أصبح أسوأ ممَّا كان عليه من قبل.

(**المترجم: ديوجين**؛ **ديوجينيس**) هو فيلسوف يوناني قديم من أتباع المدرسة الكليبيّة كينيكي (Κυνικοί)، عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. وقد اشتهر بحياة الزهد الشديد واحتقار المظاهر والترف، حتى إنَّ الروايات تصفه بأنَّه كان يعيش في جرةٍ كبيرة أو مكانٍ بسيط جدّاً، ويتعمّد مخالفة العادات الاجتماعيَّة. وسمّي أتباع هذه المدرسة: «كليبيين» لأنَّ كلمة: كيون Κύων تعني: «كلب». وكانوا يرون أنَّ الإنسان يجب أن يعيش بلا تكلف، وبلا خضوع للمجتمع أو للتلف أو للقوانين التقليديَّة. لكن الكاتب هنا ينظر إلى **ديوجين** من منظورٍ مسيحيٍّ رومي، ولذلك ينتقده، معتبراً أنَّه: لم يترك العالم بدافع القداسة، بل بدافع الكبرياء والتميز، وأنَّ زهده لم يكن ثمرة تواضع روحي، بل نوعاً من التفاخر الفلسفي. ولذلك قال: «صار كلباً» أي: صار تابعاً للفلسفة الكليبيَّة، وانحدر إلى حالة أدنى روحيّاً.)

وبالطبع، فإنَّ الإنسان القديم، الذي كانت آلهته إمَّا أهواء الجسد وإمَّا عقله الخاص، كيف كان يستطيع أن ينفصل عن بطلان العالم، فيما كان هذا البطلان نفسه يشكّل جوهرَ ديانته؟ وإلى أين كان يمكنه أن يهرب؟ إلى البرِّيَّة؟ وكيف كان يقدر أن يحتملها من دون

الرُّوحُ الرومِيَّةُ ووجدانها المستنير

Ρωμησύνη - Romiosyne



أيقونات روميَّة من كنيسة خورا - القسطنطينية

الأخلاقُ الروميَّةُ ووجدانها المستنير

يجب أن نضع في أذهاننا أنَّ الإمبراطوريَّة الروميَّة كانت تمثل الهيلينيَّة ذات البُعد المسكوني، لأنَّ الرومان، حتى قبل احتلالهم لليونان سنة ١٤٦ ق.م، كانوا قد تأثروا بالحضارة اليونانيَّة وتهدَّبوا بها. وحين تشبَّعت الإمبراطوريَّة الروميَّة لاحقًا بالمسيحيَّة في تعبيرها الأصيل، أي بالأرثوذكسيَّة، نشأ كيانٌ حضاري وروحي مميَّز عُرف باسم «الإمبراطوريَّة الروميَّة المسيحيَّة» (روميًّا - الروميَّة). وهذا كان الاسم الحقيقي لتلك الإمبراطوريَّة، أمَّا اصطلاح «الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة» فقد أُطلق عليها لاحقًا من قِبَل المؤرِّخين الفرنجة. وأوَّل من استعمل هذا المصطلح كان هيرونيμος فولف سنة ١٥٦٢م، وذلك بخلفيَّة ذات طابعٍ سياسي وعقائدي واضح، ضدَّ الروميَّة.

وهكذا، فقد قامت الإمبراطوريَّة الروميَّة الأرثوذكسيَّة على ثلاثة عناصرٍ أساسيَّة: التراث اليوناني والهيليني، والتشريع الروماني، والإيمان الأرثوذكسي. وكان الرومُ أرثوذكسيين، تُعبِّر الأرثوذكسيَّة لديهم عن ذاتها من خلال المصطلحات اليونانيَّة القديمة. وقد كان سكَّان الإمبراطوريَّة الروميَّة ينتمون إلى شعوبٍ وأعراقٍ متعدِّدة، غير أنَّهم اشتركوا في سماتٍ جامعة، أهمُّها التراث اليوناني أو الهيليني، والإيمان الأرثوذكسي. وكانت اللغتان الأساسيتان هما اليونانيَّة واللاتينيَّة، مع وجود تفاعلٍ حضاريٍّ ولغويٍّ وتأثيراتٍ متبادلة بين مختلف الجماعات. لكنَّ القواسم الثقافيَّة والدينيَّة بقيت مشتركةً بينهم جميعًا. وأكثر ما يلفت النظر في سكَّان الإمبراطوريَّة الروميَّة هو الفضيلتان الأساسيتان اللتان ميَّزتا حياتهم: **محبةُ الله ومحبةُ الإنسان.**

الفيلوثيا والفيلانثروبيَّا الروميَّة

«الفيلوثيا» تعني محبةُ الله، و«الفيلانثروبيَّا» تعني محبةُ الإنسان والرحمة تجاهه، وهما من أبرز السمات الروحيَّة في الإمبراطوريَّة الروميَّة الأرثوذكسيَّة.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الجميع في الإمبراطوريَّة الروميَّة الأرثوذكسيَّة كانوا يمارسون اللاهوت، من أصغر راهبٍ حتى الإمبراطور نفسه.

ف «الإيوثينا» (Ἐωθινά)، أي الذوكصاستيكا الخاصَّة بأحد القيامة والمرتبطة بإنجيلات القيامة، هي من وضع لاون الحكيم، أمَّا «الإكسابوستيلاريا» في خدمة سحر الآحاد فهي من تأليف ابنه الإمبراطور قسطنطين (ابن لاون الحكيم). وكذلك فإنَّ الترنيمة الشهيرة: «يا كلمةُ الله، الابنُ الوحيد...»، الذي نرتله خلال القدَّاس الإلهي، هو من نظم الإمبراطور يوستينيانوس. أمَّا «الباراكليسي الكبرى» الموجهة إلى والدة الإله الفاتكة القداسة، فهي من تأليف الملك ثيودوروس دوكاس لاسكاريس.

(المترجم: لُقِّب الإمبراطور لاون بـ«الحكيم» لأنَّ كلمة Σοφός في التقليد الرومي لا تعني الذكاء فقط، بل تشير أيضًا إلى الحكمة، والعمق الفكري، والثقافة، والتميَّز في العلم والتشريع واللاهوت.)

وفي هذا الإطار أيضًا ينبغي أن نفهم كيف أنَّ الأباطرة في المجامع المسكونيَّة كانوا يمارسون اللاهوت ويدافعون عن العقيدة الأرثوذكسيَّة، لأنَّهم جعلوا اللاهوت الأرثوذكسي والعبادة الكنسيَّة محورًا لحياة الإمبراطوريَّة. كذلك كان الأباطرة، ومعهم الشعب بأسره، يتخذون الرهبان نموذجًا للحياة، والأديرة مثالًا لتنظيم المجتمع. فكانوا يزورون الأديرة وأماكن النسك عمومًا، ويتلقَّون منها الإرشاد لحياتهم وإدارة الدولة أيضًا. وفي كثيرٍ من الأحيان كان القصر الإمبراطوري يبدو أشبه بدير، إذ كان الأباطرة ورجال البلاط يتسابقون مع الرهبان في الجهاد النسكي، والتقشُّف، والصوم، والصلاة.

كان القدِّيس غريغوريوس بالاماس، في شبابه حين كان يقيم في القصر الإمبراطوري، يعيش نسكًا وصلاةً عميقين إلى درجة أنَّ الجميع كانوا ينظرون إليه كإنسانٍ يفوق المألوف. أمَّا والده، الذي كان عضوًا في مجلس الشيوخ، فكان متمتعًا بمهوبة الصلاة العقليَّة. كذلك فإنَّ كثيرًا من الأباطرة، عندما كانوا يتركون السلطة بطرقٍ مختلفة، كانوا يرتدون الثوب الرهباني ويموتون كرهبان، كما حدث مع الإمبراطور يوحنا كانتاكوزينوس الذي ترهَّب وحمل اسم يواصاف. وهكذا كانت الإمبراطوريَّة بأسرها أشبه بديرٍ كبير، أي كنيسة حيَّة واحدة.

الخاتمة

إنَّ تاريخَ الدولةِ الرومِيَّةِ يقدِّمُ مشهدًا فريدًا لتحوُّلِ دولةٍ متعدِّدةِ الشعوبِ، ذاتِ تنظيمٍ وإدارةٍ رومانِيَّينِ، وإيمانٍ مسيحيٍّ، وثقافةٍ ولغةٍ يونانِيَّتَيْنِ، إلى كيانٍ سياسيٍّ ذي لغةٍ موحَّدةٍ، ووحدةٍ عقائديَّةٍ، وتركيبٍ حضاريٍّ جديدٍ، شكَّلَ أيضًا البداياتِ الأولى للوعي القومي اليوناني.

إنَّ تاريخَ الدولةِ الرومِيَّةِ يحملُ، بلا شك، أهميَّةً خاصَّةً بالنسبةِ إلينا نحنُ اليونانيِّينِ ولتاريخنا القومي، غير أنَّه يُعدُّ أيضًا عاملاً بالغ الأهميَّةِ في مسارِ التطوُّرِ التاريخيِّ العالميِّ. فالحضارةُ الرومِيَّةُ، عبر تاريخها الطويل، أدَّت دورًا مزدوجًا: فمن جهةٍ، دافعت عن أوروبا آنذاك من الدمار، إذ صدَّت مرارًا هجمات الأعداء والشعوب البربريَّة؛ ومن جهةٍ أخرى، شكَّلت خزانةً منيعَةً للكنوز الفكرية والفنية للبعثِ القديم، فلم تحفظها فحسب، بل شرحتها أيضًا ونقلتها إلى بقيةِ أوروبا. وهكذا ساهمت، إلى حدِّ كبير، في تكوين الأُسُس التي قامت عليها الحضارةُ الغربيَّة الحديثة؛ خصوصًا بالنسبة إلى شعوبِ جنوبِ شرقِ أوروبا، كانت الحضارةُ الرومِيَّةُ المعلمَ والمرشدَ الذي قادها إلى تعاليم المسيحية السامية وإلى نيايح حضارةٍ أرقى، وقد أعدت لهم أجدبتهم الخاصَّة، من خلال أعمال القديسين كيرلس وميثوديوس، اللذين وضعاً أُسس الكتابة السلافية، إلى جانب تلاميذهما وساعدتهم على تطوير آدابهم ولغاتهم المكتوبة. كما أصبحت لهم نموذجًا يُتذى به في تنظيم الدولة وفي مختلف أشكال التعبير الحضاري والثقافي. وهكذا غدت الإمبراطورية الرومِيَّة اليونانية مثالاً مشرقًا في مجالات النموِّ الروحي والفني والثقافي عمومًا.

وبفضل هذه القوة التي امتلكها الهيمنة الرومِيَّةُ تحديدًا، استطاع الشعبُ اليوناني، حين حُرِّم من حقِّه في الكيان السياسي والدولة، أن يبقى حيًّا ويحافظ على وجوده طوال أربعة قرون من واحدةٍ من أثقل فترات العبودية التي عرفها التاريخ، وأن يظلَّ عنصرًا حضاريًّا مؤثرًا، لا في منطقة البلقان وحدها، بل في مناطق أبعد بكثير منها أيضًا.

يوحنا كارايانوبولوس، الإمبراطورية الرومِيَّة، الطبعة الرابعة.

الرُّومُ الأرثوذكس للتراث الرومي الآبائي الشهادة النابضة

إنَّ وجودَ الروم الأرثوذكس في الشرق الأوسط ليس مجرد بقايا تاريخ غابر، ولا أثرًا باهتًا لحضارةٍ انقضت، بل هو ختمٌ حيٌّ نابض يحمل حتى اليوم روحَ التراثِ الرُّوميِّ الأصيل. ففي لغتهم الليتورجية، وفي ألحانهم الكنسية، وفي تقليدهم الآبائي، وفي ذاكرتهم الروحية والجماعية، ما تزال الرومِيَّةُ الأرثوذكسيةُ حيةً تتنفس عبر القرون.

لقد سقطت إمبراطوريات كثيرة وتبدلت حدود ودول، أمَّا هذا التراث الرومي الآبائي، فبقي مُتَّقَدًا في الكنائس والأديرة والرعايا والعائلات المؤمنة، كجذوةٍ لم تنطفئ. والروم الأرثوذكس في الشرق لم يحملوا اسمًا تاريخيًّا فقط، بل حملوا رؤيةً كاملةً للإنسان والحياة والإيمان، رؤيةً صاغتها خبرةُ الكنيسة الجامعة عبر القرون، وتجلت في الليتورجيا،

ومن المعروف أيضًا أنَّ التقليد الليتورجي بأكمله، حتى القداس الإلهي نفسه، قد تأثر بطقوس البلاط الإمبراطوري وبمشاركة الإمبراطور فيها. وإلى جانب محبة الله، كان الرُّوم يمارسون أيضًا محبة الإنسان بصورة عميقة وملموسة، وهذا أمرٌ طبيعي، لأنَّ الإنسان حين يحب الله حقًا، لا يستطيع ألا يحب أيضًا ما يحب الله. وهكذا أصبحت الإمبراطورية الرومِيَّة الأرثوذكسيةُ بأسرها إمبراطوريةً رحمةً ومحبةً للإنسان، وقد حفظ التاريخ معلومات كثيرة تصفها بهذا الطابع. وقد قال أحدُ السفراء، الذي ذهب للتفاوض مع الآفار، في معرض حديثه عن الرُّوم: «إنَّ الروم، باسم السلام، يلقون المصائب السابقة في غياهب النسيان، وقد نسوا بالفعل المظالم التي ألحقت بهم. ولأنهم يتفوقون على سائر الممالك في محبة الإنسان، فهم ليسوا ميالين إلى اللجوء إلى السلاح». كذلك أوصى الإمبراطور تيباريوس الثاني (٥٧٨-٥٨٢م) صهره الإمبراطور موريس قائلاً: «للتقدُّم محبة الإنسان على الغضب».

لقد كانت الإمبراطورية الرومِيَّة الأرثوذكسيةُ دولةً ممجَّدة بسبب روحها الإنسانيَّة الرحيمة. فلأوَّل مرَّة رأى العالم دورَ المسنين، ودور الأيتام، والمستشفيات، وسائر مؤسسات الرحمة المنظمة بعناية كبيرة، وكان معظمها يُبنى حول الأديرة. ويكتب القديس فوتيوس الكبير إلى الإمبراطور باسيلوس الأول قائلاً: إنَّه ينبغي له أن يتصرف بما يليق برئيس «الدولة الرومِيَّة الأكثر محبةً للإنسان»..

وفي القرن العاشر كتب نيقولاوس السري إلى قائد العرب، الذي كان يُعدُّ هجومًا على القسطنطينية بسبب شائعة انتشرت عن تدمير مسجدهم فيها، موضِّحًا له ألا يصدِّق مثل هذه الأخبار التي لا أساس لها. وكان ممَّا كتبه له: «إنَّ دولة الروم تتميز بأمرٍ كثيرة، غير أنَّ ما يرفعها فوق كلِّ شيء هو محبة الإنسان والرفق بالآخرين». بل إنَّ الناس في كلِّ مكان، والتاريخ بأسره، يؤكِّدون هذه الشهادة. أمَّا يوحنا كانثاكوزيوس فيصف الإمبراطورية كلها بأنها دولةٌ مكرَّسة لمحبة الإنسان.

غير أنَّ محبة الله ومحبة الإنسان كلتيهما كانتا ثمرةً تحوُّل المحبة من محبة أنانية إلى محبة غيرية خالية من المصلحة الشخصية والانانية، بل إلى المحبة التي تتوجَّه نحو الله والإنسان بروح العطاء والتضحية. فلم يكن الرُّوم يتميزون بحب الذات بقدر ما كانوا يتميزون بمحبة الله ومحبة الإنسان. وقد ساهم في ذلك النهج العلاجي الأرثوذكسي، الذي يُعدُّ القلب النابض لتقليدنا الروحي. وإنَّ كونَ الرهبان والقديسين كانوا النماذج العليا للحياة السياسيَّة والاجتماعية، هو دليلٌ على أنَّ النسك، والتجرُّد، وضبط النفس، أي الحياة الزهدية عمومًا، كانت هي الروح السائدة، وهذه الطريقة نفسها كانت تشفي الإنسان داخليًّا. ولهذا أيضًا كان الأباطرة الرُّوم يسعون إلى تثبيت الإيمان الأرثوذكسي وانتشاره، لأنَّ الأرثوذكسية ليست مجرد أيديولوجيا فكرية، بل أسلوب حياة متكامل ومحدَّد.

المصدر: المسيرة الرومِيَّة: عودة إلى جذورنا. إعدادُ الراهب أبرآم الآنوسِي. من منشورات جبل آثوس المقدس.

ΡΩΜΑΪΚΟ ΟΔΟΠΟΡΙΚΟ, Ἀναδρομή στις ρίζες μας. Ἐπιμέλεια Μοναχοῦ Ἀβραάμ Ἀγιορείτου

والقسطنطينية بخيطٍ روحي واحد، وتجعل من هذا التراث شهادةً متواصلة على **أن الرومية** لم تكن يومًا قوميةً ضيقة، بل حضارةً مسيحيةً مسكونيةً احتضنت شعوبًا كثيرة ووحّدتها في **نور الإيمان الأرثوذكسي**.

والنسك، والرحمة، والثقافة، والشهادة. ومن هنا، فإنّ الحضور الرومي الأرثوذكسي في المشرق ليس مجرد حضورٍ إثني أو ثقافي، بل استمرارٌ حيّ لذاكرةٍ كنسيةٍ وحضاريةٍ عميقة، تربط أنطاكية وأورشليم



دير إسفاغمينو المقدس جبل آثوس

تتقدّم **جمعية نور المسيح** بجزيل الشكر والامتنان إلى دير إسفاغمينو المقدّس في جبل آثوس، على هذه الكنوز التاريخية والروحية القيمة الواردة في **الصفحات ٣-١٢**، والتي أغنت هذا العمل وأضاءت صفحاته بمعاني الرومية الأرثوذكسية وتراثها العريق. كما نُعربُ عن تقديرنا لهذه الشهادات والصور والمعلومات التي تحفظ الذاكرة الروحية والحضارية لروما الجديدة، وتنقلها بأمانةٍ إلى الأجيال القادمة.

الإلهية الموحى بها، ونأخذها معزولةً وغريبةً عن ترابطها وسياقها... فطُرحَها كما نشاء نحن وبلا خوف. لأنّه بهذه الطريقة دخلت إلى حياتنا تعاليمٌ كثيرةٌ محرّفة، إذ إنّ الشيطان يُقنعُ المتهاونين أكثر من غيرهم بأن يتلوا نصوصَ الكتب المقدّسة بصورةٍ محرّفة، إمّا بإضافة كلماتٍ، أو بحذفها، فيظلموا **الحقيقة** ويحجبوا نورها.

إذًا لا يكفي أن نقول: **«إنّه مكتوبٌ في الكتاب المقدّس»**، بل ينبغي أن نقرأ أيضًا تتمّة الكلام كلّها؛ لأنّنا إن قطعنا الترابط والاتّصال بين الأقوال، نتج عن ذلك تعاليمٌ شريفة كثيرة...

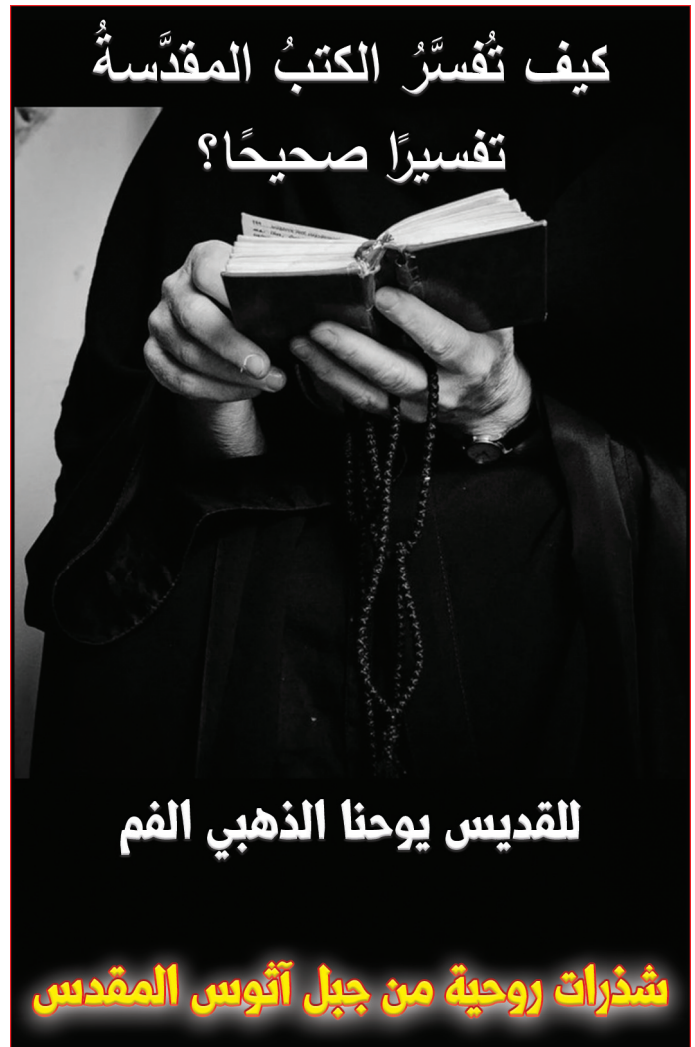
ولا ينبغي فقط ألا نقتطع النصوص من سياقها وترابطها، بل يجب أيضًا أن ننطق بها كما ينبغي، وألا نضيف إليها شيئًا. فكثيرون يتداولون مقاطعَ أخرى من **الكتب المقدّسة** وهم يتلوها بصورةٍ محرّفة... كما يردّدون أيضًا قولًا آخر، لا عبر تشويه معناه، بل بإضافة شيءٍ آخر ليس مكتوبًا أصلًا.

فهكذا هي حيلة الشيطان ومكره: أن يُدخل تعاليمه المهلكة، إمّا بالإضافة، أو بالحذف، أو بتحريف المعنى، أو بتشويه النصوص... لذلك لا يجوز أن نورد **نصوص الكتاب المقدّس** بصورةٍ مبهمّة وعمامة، ولا أن نقتطعها من سياقها، ولا أن ن فصلها عن وحدتها الداخلية، ولا أن نأخذها معزولةً ومنفصلة، وقد جرّدها من معونة ما قبلها وما بعدها، ثمّ نفترى عليها بصورةٍ عامّة ونؤثّر تأثيرًا سيئًا ومؤذيًا.

أفليس من غير المعقول أنّنا، عندما نحاكمُ أمام المحاكم في أمورٍ حياتيةٍ وزمنية، نطالبُ بجميع حقوقنا، ونبرزُ الأماكن والأزمنة والأسباب والأشخاص، ونقدّم آلاف البراهين والأدلة الأخرى؛ بينما حين تكونُ لنا جهاداتٌ تتعلق **بالحياة الأبدية**، نذكر **نصوص الكتب المقدّسة** بهذه الطريقة العامّة والعشوائية؟

فحتى **القانون الملكي** لا يورده أحدٌ بصورةٍ عامّةٍ ومبهمّة، وإن لم يذكر زمانه، ولم يُبيّن أيضًا من الذي أصدره، ولم يقدّمه صحيحًا وكاملًا، فإنّه يُحاكمُ ويُعاقبُ بأقصى العقوبات.

أما نحن، فعندما نستشهدُ لا بقانونٍ بشريّ، بل بذلك الذي أتى **من فوق، من السماء**، نستعمله بكلّ هذا الاستهتار، حتى إنّنا نقتطع منه مقاطعَ وأجزاء! وكيف يمكنُ أن تكون هذه الأمور جديرةً بالتبرير أو بالغرغان؟



كيف تُفسّر الكتب المقدّسة تفسيرًا صحيحًا؟

للقدّيس يوحنا الذهبي الفم

شذرات روحية من جبل آثوس المقدّس

كيف تُفسّر الكتب المقدّسة تفسيرًا صحيحًا؟

للقدّيس يوحنا الذهبي الفم

يجب أن تُصغوا بدقّة إلى ما يُقال. فهناك هوةٌ ومنحدّرٌ عميقٌ من كلا الجانبين، إن لم نقرأ **القول الإلهي** بتمعّنٍ وتدقيق...

لأنّه لا ينبغي أن ننظرَ فقط إلى عبارة: «ليس الإنسان سيّد أعماله»، بل إلى تتمّة الكلام كلّها أيضًا، ولَمَن قيلت، ومن قِبَل مَنْ، وعن مَنْ، ولأيّ سبب، ومتى، وبأيّ طريقة.

لأنّه لا يكفي أن نقول: إنّهُ مكتوبٌ في الكتب المقدّسة، ولا أن نقتطع الأقوال بصورةٍ عامّة، فنمزّق أعضاء الجسد الواحد **للكتب**

الفصل الحادي عشر

فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: «هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟ لَأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُ فِي الْأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ، يَتَّقِي اللَّهَ وَيَجِدُّ عَنِ الشَّرِّ». فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ: «هَلْ مَجَانًا يَتَّقِي أَيُّوبُ اللَّهَ؟ أَلَيْسَ أَنَّكَ سَبَّحْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟ بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَأَنْتَشَرْتَ مَوَاشِيَهُ فِي الْأَرْضِ. وَلَكِنْ ابْسِطْ يَدَكَ الْآنَ وَمَسَّ كُلَّ مَا لَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ». (أَيُّوبُ ١: ٨-١١).

وَقَالَ الرَّبُّ: «سَمِعَانُ، سَمِعَانُ، هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُعْزِلَكُمْ كَالْحِطَّةِ!» (لوقا ٢٢: ٣١).



القديس نكتاريوس العجائبي

من **إيجينا**، بل من جزيرة سيفنوس، وتعيش منفصلة عن زوجها. ويُعرف عن زوجها أنه رجل هادئ، يملك مقهى ويديره مع ابنته التي كانت جميلة. وكانت هذه المرأة تُدعى إيريني فراغودي، وهي تدعي الفقر وتشكو من ظلم القدر وترتاد الأسواق والبيوت لتبيع الشموع والبخور. وكان الجميع يعرفها بلقب «بائعة الشموع». وكانت تقوم كمحترفة بعمل هو في الأصل مخصص للأرامل اللواتي لا تترتب عليهن مسؤوليات عائلية، وذلك بغية الوصول إلى بعض اليسر بأيّ ثمن.

كانت تشعر أحياناً بفراغ عميق في داخلها ومن حولها، فتبدأ بالصباح وتضرب نفسها ثم تنتهي بالنواح والأنين. وكانت ابنتها ماري مائلة إلى الخير، إلا أن أمها كانت تضر لها الغيرة والحسد. فإذا التقتها في بيت أحد الأصدقاء وطلبت منها أمراً لم تطعها في تنفيذه، فكثيراً ما كانت تهجم عليها كالوحش المفترس وتضربها على رأسها. حتى إنّها قدّمت لها مرّة في إحدى الأمسيات قطعاً من الحلوى المسمومة.

وكانت إذا قارنت بينها وبين ابنتها شكّت في أنّ فتاةً بجمالها وعمرها قد بقيت طاهرة وبعيدة عن الملدّات الرديئة. وهكذا فقد كانت على ثقة بأن ابنتها تكذب عليها وتكتم أمر لقاءاتها بالرجال وترفض مساعدتها مادياً لأنّها لا تأخذ أمها على محمل الجدّ. وكانت تثق بأنّها كانت لتصبح شديدة الثراء لو أنّ ابنتها وافقت على العيش معها. ولهذا كانت تبصق في وجهها أمام الناس وتصرخ قائلة:

«اذهي من هنا أيّتها المنافقة، أيّتها الساقية الصغيرة الغامضة.»

وكثيراً ما كانت الشابة تصعد إلى الدير. وقد طلبت في أحد الأيام مقابلة المؤسس المنتسك والصامت. فارتمت عند قدميه واعترفت له بكلّ شيء، وتوسّلت إليه باكية أن يسمح لها بالبقاء في الدير كمبتدئة، وعرضت أن تهتمّ بالأعمال التنظيمية، ولم تطلب غير القليل من الغذاء. وكانت قد طلبت هذا منذ زمن، وقت المواجهة الأولى بين **نكتاريوس** و**ثيوكليطس**، في ذلك اليوم نفسه الذي وصل فيه الأرشمندريت قبل سنتين إلى **إيجينا** موقداً من قبل المتروبوليت للتحقيق. فاستشار عندها نكتاريوس الأرشمندريت، وبعد موافقته قبلت الشابة في الدير. وهكذا فقد استقبلت وعُهدت بها بصورة خاصة إلى **الأخت كساني** التي اهتمت بها وكانت تراقبها **بجان أمومي**. إلا أنّ هذه الشابة كانت تخرج أحياناً عن الطريق القويم، فتخترع الأعدار المختلفة وتنزل كثيراً لتزور والدها، وتغيب عن الدير لأيام عدّة.

وكانت والدتها، «بائعة الشموع»، تذهب كثيراً إلى الدير، فتبادرهم

لقد ذكرنا أنّاً أنّ الأحداث التاريخية المفاجئة قد أبعدت من الدير بعض الوقت أسباب القلق والمخاوف، وكذلك الاستجابات والمضايقات المتواصلة التي كانت التي تسببت بها هجمات **ثيوكليطس**. وقد أدى ذلك إلى حلول السكون الروحي وبعض السلام.

إلا أنّ الشيطان، رئيس الظلمة، كان قد حصل من العرش المقدّس على الإذن بأن يخرق بسهمه المسموم قلب هذا المجاهد والكاهن الفدّ، فبدأ يحضّر بغضب هجومه الأكثر هولاً وجريمتة الأكثر دناءة.

فقد توقّف حصار الإنكليز في بداية **العام ١٩١٨**، وانتهت الحرب في أوروبا بجزمة الألمان. فأصبح ملاتيوس - أسقف كيتي السابق في قبرص - متروبوليتاً على أئينا. وكان رجل كنيسة كثير الخصال، حيويّاً، متعلماً، وذا نشاطٍ سياسيٍّ وإكليريكّيٍّ مهمّ، سواءً في ما يختصّ **بقبر** **السيد المسيح**، أم بالمشكلات الداخلية في الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية.

وقد فاجأ الجميع في صباح ربيعي بدخوله **دير إيجينا** بغتة برفقة شماسه، وقضى على كلّ أمل.

لقد وجد مؤسس الدير يحفر الأرض بالمعول، فامتعض للأمر، إذ رأى رجلاً متقدماً في السنّ يلبس الثياب غير اللائقة ويتصبّب عرفاً لكده في العمل المضني، وقد اتسخت يدها من الوحل، فانتبه لذلك، وأعطاه بعض الملاحظات في هذا الشأن. فقد كان يرى أنّه من غير المقبول ولا المنطقي أن يضيق أسقف وقته في الأعمال اليدوية. وأمر بأن تقدّم إليه جميع الراهبات، وقام بطرح جميع أنواع الأسئلة وقد بدت عليه سيماء الصرامة والشكّ. ثمّ هزّ رأسه بطريقة غامضة ورحل.

وفي تلك اللحظة بالذات، وفي أسفل **إيجينا**، كان الشيطان يصرف بأسنانه ويتأني بتحضير الضربة القاضية في هجومه بواسطة امرأة كانت منقادةً له. امرأة كانت تحت إمرته ولم تعرف الربّ في حياتها. فقد كانت روحها تزداد غرقاً يوماً بعد يوم في وهمٍ مأساوي وفانٍ. لم تكن هذه المرأة

الروميّة الأرثوذكسيّة: أمس، اليوم، وغداً

قراءة تاريخية في مفهوم الروميّة عند الأب يوحنا رومانيدس



Ρωμηοσύνη
χθες, σήμερα, αύριο
Π. Ι. Ρωμανίδη



التفاعل التاريخي بين اليونانية واللاتينية في الحضارة الروميّة، وهو تفاعل أسهم في تشكيل الهوية الكنسيّة والثقافيّة للعالم الروميّ عبر القرون. بل يُحتمل أن روما القديمة لم تكن، في أصل تكوينها، ثنائيّة اللغة فحسب، بل رباعيّتها، لأنّها عرفت، حتى القرن السادس، ملوكاً إتروسكيّين، فيما كانت اللغات الإتروسكيّة واللاتينيّة والأوسكيّة واليونانيّة تتعايش معاً في فضاءها الحضاريّ.

رابعاً: إلا أن الرومان، الخارجين من إطار روما القديمة، حين امتدّ نفوذهم إلى الإسكندريّة وأنطاكية وأعماق آسيا الصغرى، لم يسعوا إلى إخضاع تلك الأقاليم لعمليّة «التلطين»، أي فرض الهوية اللاتينيّة لغّة وثقافة وإدارة، بل ساروا، على النقيض من ذلك، في استكمال مسيرة التهلين، أي إدخال الشعوب في الفضاء الحضاريّ اليونانيّ، بل ومضواً أيضاً في تهلين المناطق التي لم تكن قد اندمجت بعد اندماجاً كاملاً في العالم اليونانيّ.

خامساً: ومن الضروريّ الإشارة إلى أنّ اللغة اللاتينيّة، بعد إغلاق المدارس اللاتينيّة في روما القديمة سنة ٩٢ قبل الميلاد، أخذت تدخل في مرحلة ضعف وانحسار، وما كان لها أن تتألّ الامتداد الواسع الذي عرفته لاحقاً في الغرب، لولا التوسّعات الرومانيّة في بلاد الغال وموريتانيا وبريطانيا، حيث أرسل المستوطنون اللاتين بأعداد كبيرة إلى تلك الأقاليم. غير أنّ اللاتينيّة كانت قد انتشرت بالفعل في إسبانيا منذ سنة ١٩٥ ق.م، وفي أفريقيا منذ سنة ١٤٦ ق.م، كما غدت اللغة السائدة في شمال إيطاليا. أما اليونانيّة، فكانت، في سنة ٩٢ ق.م، لغة متجدّدة في جنوب إيطاليا، وصقلية، وكورسيكا، وسردينيا، والجزر الإسبانيّة، والمدن الساحليّة لشرق إسبانيا، وبلاد الغال، وغرب إيطاليا، وجميع المقاطعات الواقعة شرق إيطاليا.

ومن هنا، يتضح أنّ الأكتريّة الساحقة من شعوب «الروميّة» «أي العالم الرومي» كانت ناطقةً باليونانيّة، ممّا يُظهرُ الجذور الهيلينيّة العميقة

إنّ السعي إلى تحديد مفهوم «الروميّة» «الروميّوسيني» تحديداً مستقيماً وأميناً، بما يضمن ترسيخ حضورها وصون إشعاعها في الحاضر والمستقبل، يفرض ضرورة العودة إلى أحضان التاريخ، والغوص في ميادين الحضارة والفنّ واللاهوت والفلسفة والسياسة، وسائر العوامل التي أسهمت، عبر القرون، في تشكيل شخصيّتها التاريخيّة والروحيّة والحضاريّة.

ومن الضروريّ للغاية التوقّف عند المرتكزات المرجعيّة الآتية:

أولاً: إنّ روما كانت «مدينة-دولة» «بوليس كراتور» ΠΟΛΙΣ-ΚΡΑΤΟΣ أي: «المدينة التي تشكّل دولة قائمة بذاتها». شأنها شأن أثينا وإسبرطة وطيبة. وبالتالي، فإنّ تسمية «الرومي» «روميوس» (Ρωμαίος) لم تكن تدلّ على عرق أو قوميّة بالمعنى الضيق، بل على مواطن روما الأولى، وبالأخصّ مواطن القسطنطينيّة باعتبارها «روما الجديدة»، ذات الامتداد الجغرافيّ الذي شمل البطريقيّات الروميّة الخمس، أي نظام البنتارخيّة، (بنته أرخي) وتعني:..

Πέντε (بنته) = خمسة، ἄρχη (أرخي) = رئاسة، سلطنة، قيادة، بداية.

ثانياً: لقد قامت بين روما (والمدن اليونانيّة: أثينا، إسبرطة، طيبة - الدول City-States) رابطة هويّة حضاريّة مشتركة، إذ إنّ روما أصبحت، منذ وقت مبكّر جداً، واحدة من المدن اليونانيّة الكثيرة المنتشرة في حوض البحر المتوسط. غير أنّ التطابق الكامل مع العالم اليونانيّ قد بلغ ذروته حين نُقلت عاصمة الإمبراطوريّة من روما إلى «روما الجديدة»، أي القسطنطينيّة، على يد القديس الإمبراطور قسطنطين الكبير.

ثالثاً: إنّ «روما الأولى» كانت ذات طابع ثنائيّ اللغة، ومن ثمّ حافظت «روما الجديدة» بدورها على هذه الازدواجيّة اللغويّة حتى القرن السابع. أمّا «الروميّة» «الروميّوسيني»، فإنّها لا تزال، إلى اليوم، تحمل في كيانها هذا الإرث اللغويّ المزدوج، ويشيرُ تعبير «الإرث اللغويّ المزدوج» إلى

التي تميّز بها العالمُ الروماني عبر التاريخ.

سادساً: وفوق ذلك، فإنَّ النخبة الفكرية الرومية، التي كانت تكتب باللاتينية، أتقنت اليونانية بطلاقةٍ كاملة، واتَّخذت من التراث الأدبيّ اليونانيّ نموذجًا تحذّي به، إلى درجة الاندماج الحضاريّ العميق بالعالم اليونانيّ.

إلا أنَّ الرومانيين، في غالبيتهم، لم يقتصروا على الكتابة باللاتينية، بل كتبوا أيضًا باليونانية، ولا سيّما بعد انتقال العاصمة إلى القسطنطينية على يد القديس الإمبراطور قسطنطين الكبير، حيثُ غدت اليونانية منذئذٍ لغة الكتابة السائدة، بل اللغة الوحيدة في مراحل لاحقة.

سابعًا: ويشكّل هذا الواقعُ شاهدًا تاريخيًا بالغ الدلالة على موقف الأوروبيين من الرومانيين، إذ لم يتخذ أيُّ إمبراطورٍ أو بابا من أصول اللاتينوفرنجة، أو الإبطالوفرنجة، أو التيوتونوفرنجة، أو النورمان، أو البورغونديين، أو اللومبارديين، اسمَ «قسطنطين» عبر التاريخ.

وبكلمة جامعة، فإنَّ الحضارة الغربية بأسرها لم تُنجب شخصًا حمل اسمَ قسطنطين الكبير، المؤسس الأعظم للرومية، تلك الرومية التي اتَّخذت من «روما الجديدة» المسيحية الأرثوذكسية مركزًا لها، أي مدينة قسطنطين، القسطنطينية.

ثامنًا: كان الروميون، عبر التاريخ، خصومًا للشعوب الجرمانية، لكنهم لم يقفوا يومًا في مواجهة الحضارة اليونانية، لأنهم كانوا، في حقيقتهم التاريخية والحضارية، جزءًا عضويًا لا ينفصل عنها. ومن ثمّ، تبدو غير مستقيمة تلك النظرة التي تصوّر الرومانيين بوصفهم غزاةً لليونانيين؛ إذ إنهم لم يكونوا يونانيين فحسب، بل واصلوا أيضًا مسيرة التهليل بين الشعوب التي دخلت في إطار الرومية.

ومن هنا، فإنَّ اسمَ «الرومية» (Ρωμανία – Romanía) ينتمي انتماءً أصيلًا إلى الحضارة اليونانية، بحيثُ تغدو مفاهيم:

الرومية (Ρωμανία – Romanía)،

والقسطنطينية (Κωνσταντινούπολη – Kōnstantinoúpoli)،

وروما الجديدة (Νέα Ρώμη – Néa Rhómē)،

والرومي (Ρωμαίος – Rhōmaïos)،

والرومي (Ρωμηός – Rhōmiós)،

والروميوسيني (Ρωμηοσύνη – Rhōmiosýnē)، والحضارة اليونانية

الأرثوذكسية، وجوهًا متعدّدة لحقيقة حضارية وروحية واحدة.

وانطلاقًا من الإشارات السابقة، يبدو من الضروريّ إعادة تحديد الخريطة الحضارية للعالم اليونانيّ، على نحو ينسجم مع الحقيقة التاريخية والثقافية والكنسية للحضارة اليونانية، بحيثُ يُعتبر تاريخ الرومانيين الحاضرين عبر العصور جزءًا عضويًا لا ينفصل عن تاريخ الروميوسيني (Ρωμηοσύνη – Rhōmiosýnē).

إنَّ الذاكرة التاريخية الكاملة للروميوسيني محفوظة في الكتب الليتورجية للكنيسة الأرثوذكسية، كما تُحفظ في تراث الرومية الناطق باليونانية واللاتينية، وتجدُ تأكيدها أيضًا في شهادات الفرنجة والعرب والسلاف والأترك. ومن هنا، تصبح إعادة مصطلح «رومي» إلى موضعه التاريخي الصحيح أمرًا ملغًا، ولا سيّما حيثُ استبدل الكتاب الفرنجة والسلاف بلفظة «إغريقي». كما أنّ الفصل القائم بين «الإمبراطورية الرومانية» و«الإمبراطورية البيزنطية» أو «الإغريقية» ينبغي أن يزول، لتحلَّ محله التسمية التاريخية الواحدة والوحيدة فقط: «الرومية».



النبّي عاموص: نبّي الدّينونة وعدالة الله



النبّي عاموص، راع بسيط دعاه الله،
فصار صوت الحقّ، مُعلنًا عدالته، وموبّخًا الظلم،
وداعيًا إلى التوبة.

إسرائيل (٧٨٤-٧٤٦ ق.م). وكان راعيًا، ويُشرط ثمر الجميز (أي يشقّه ليساعد على نضوجه)، ومن هذا العمل استدعاه الله مباشرةً إلى المقام النبوي، كما يذكر هو نفسه في السفر المنسوب إليه من العهد القديم: «لَسْتُ أَنَا نَبِيًّا وَلَا أَنَا ابْنُ نَبِيٍّ، بَلْ أَنَا رَاعٍ وَجَانِي جُمُيزٍ. فَأَخَذَنِي الرَّبُّ مِنْ وَرَاءِ الصَّانِ وَقَالَ لِي الرَّبُّ: اذْهَبْ تَنْبَأُ لِشَعْبِي إِسْرَائِيلَ.»

النبّي عاموص: نبّي الدّينونة وعدالة الله

كان النبيّ عاموص منحدراً من مدينة تَفُوع في اليهودية، وهي واقعة إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم، وقد بلغ ذروة نشاطه في المدينة المقدّسة بيت إيل، بالقرب من السامرة، في أيام يربعام الثاني ملك

(عا:٧٤-١٥). وهكذا برز واحدًا من أبرز الأنبياء الصغار. ولقد نَدَّد بالانحطاط الخُلُقِيّ والدينيّ في إسرائيل، وكان يدعو شعبه إلى التوبة، وَتَنَبَّأً بِالدَّيْنُونَةِ الوَشِيكَةِ وَسَيِّئِهِ. ومع أنه كان محرومًا من التعلّم، فقد امتاز بالأصالة، والعفويّة، وقوّة الكلمة وإيقاعها المنظّم، وبوفرة الصور، والجمال النوعيّ في عمله. وبسبب توبيخه العنيف وكلامه القاتم عن مصير إسرائيل، أَثَارَ عليه الطبقة الكهنوتيّة، حتى إنّ أمصيا كاهن بيت إيل وشىّ به إلى الملك يريعام، ثم قال لعاموص: «اهرب إلى أرض يهوذا»، مفترجًا عليه بأنّه يهيجّ الشعب ويثير الاضطراب. وردًّا على صنيع أمصيا هذا، أنذر عاموص بهلاك بيته. وحينئذٍ، كما تقول رواية متأخّرة، إنّ أوزيا ابن أمصيا، وقد استشاط غضبًا، ضرب النبيّ عاموص بمرأوة وتركه بين الحياة والموت. ثم نُقِلَ إلى بلدته تَفُوع، وبعد يومين رقد.

«عن مدوّنة «السنكسار الكبير»»

ينتمي النبيّ عاموص إلى ما يُسمّى بالأنبياء الصغار. غير أنّ هذا الوصف لا يتعلّق بقيمة نبوّاتهم - فمن ذا الذي يجرؤ أن يقول إنّ نبوءة موخى بها من روح الله أقلّ شأنًا من أخرى من نبوءات الأنبياء الكبار، وهي تستقي من عين الإلهام نفسها؟ - بل يتعلّق بحجم الصفحات التي خلّفوها لنا. فالأنبياء الصغار هم الذين جاء ما جُمع من أعمالهم في صفحات أقلّ من صفحات الأنبياء الكبار الذين تضمّ نبوّاتهم عددًا أوفر من الصفحات. ومن ثمّ فالوصف خارجيٌّ صرف، لا جوهرى. وهذه النظرة يعبر عنها منذ بدء قانون خدمة النبيّ عاموص نفس المرمم الكنسيّ الذي نظمته، إذ يجعل العبارة الآتية: «يا عاموص، أرتل لك، أيّها النبي العظيم». فعاموص إذا نبيّ عظيم، بحسب الشاعر والمرمم الكنسيّ، الذي لا يستمدّ فكره من ذاته، بل من الرّوح القدس الذي دعاه إلى المقام النبويّ ليصير فما الله. (في اليونانية: أكروستيش: نظّم شعريّ أو كنسيّ تُرتّب فيه أوائل الأبيات أو الكلمات لتكوّن كلمة أو عبارة معيّنة.)

لقد دُعي النبيّ لينقل كلمات الله، ولهذا كان، شأنه شأن سائر الأنبياء، يستهلّ أقواله بعبارة: «هكذا قال الرّب»، الأمر الذي يعني، بطبيعة الحال، أنّ كلامه كان يحمل السلطان الإلهيّ، ويدعو الناس إلى الطاعة الحصريّة. «لقد صرت أداة إلهيّة للمعزيّ، أيّها المبارك، متجاوزًا مع نَفَحاته الدائمة» (من كاتسما السّحر). «لقد كنت فما لله، أيّها المغبوط الكلّيّ السعادة» (من ستيخيرا الغروب).

ويجدد التشديد على أنّ الله دعا نبيّه من بين الرعاة البسطاء، كما أنّ الله المتجسّد يسوع المسيح دعا لاحقًا رسله من بين الصيادين البسطاء. ولماذا؟ لأنّ الله إنّما ينظر إلى طهارة القلب وقوّته، لا إلى المؤهلات الخارجيّة، سواء أكانت علمًا أم غنى أم مناصب أرضيّة. «إنّ الله اختار أدياء العالم والمزدرى» - كما يقول الرسول بولس - «ليخزيّ الأقوياء» (١ كورنثوس ١: ٢٧-٢٨). لذلك، فمع أنّ عاموص لم يكن يملك ثقافة مميّزة، إلّا أنّه كان يحمل نَحَج حياة فائقًا، اجْتَدَبَ اللهُ لِيَجْعَلَهُ نَبِيًّا. «لقد جعلك الله، بعد أن أخذك وأنت قبلاً راع، نبيًّا وكاشفًا للأسرار، يا عاموص». «إنّ الله، إذ رأى سيرتك التي

بلا لوم، أيّها المجيد، أبرزك كارزًا بمجده وبالتجسّد الإلهيّ» (الأودية الرابعة).

وبالنسبة إلى النبيّ، لم تكن هناك مسألة اختيار شخصيّ في هذه الدعوة. فكما أنّ زئير الأسد يُلقى الخوف في قلب الإنسان، هكذا أيضًا عندما يدعو الله، يكون الإنسان مُلزَمًا بالطاعة. ويُعرف النبيّ عاموص بأنّه نبيّ الدّينونة وعدالة الله. فمنذ اللحظة التي دعاه الله فيها إلى المقام النبويّ، لم يكفّ، حتى مع بذل حياته في النهاية، عن الكرازة بعدالة الله التي لا تحتمل أن يسود الظلم بين شعبه وفي العالم عمومًا. وهذا يعني أنّه حيثما وُجد ظلم - وغالبًا من الأقوى تجاه الأضعف - فهناك محاربة لله. فالظلم يجعل الله خصمًا له في حياته، فيما يجد المظلوم في الله المدافع عن حياته.

كما يرى النبيّ ظلمًا أيضًا في السقوط في عبادة الأوثان، وفي عدم التقوى، وفي نمط الحياة الجسديّ الخاطي، وهي أمور كان يفصحها لا عند الأغنياء والأقوياء والحكّام فقط، بل كذلك عند الكهنة، بل وأحيانًا عند عامة الشعب. «لقد فضحت بوضوح عمال الإثم، أيّها الكلّيّ الغبطة، متممًا لهم عقابًا لا مهرب منه ولا مفرّ، لأنك كنت تتبع تعاليم العدالة وأحكامها الإلهيّة» (ستيخيرا الغروب). «إذ كنت توبّخ المخالفين للناموس، يا عاموص، كنت تُظهر عدالة الرب» (الأودية الثالثة). «لقد وبّخت شعب إسرائيل إذ كان يعبد أصنامًا صمًا» (الأودية الرابعة). «لقد وبّخت، أيّها المبارك، أولئك الذين أماتتهم سهام الترف، لأنهم كانوا يظنون أنّ الأشياء السائلة الزائلة قد تجمّدت وصارت ثابتة» (الأودية الخامسة).

وعاموص، بوصفه نبيًّا حقيقيًّا لله، لم يقتصر على التنديد بالمظالم والكرازة بالله الحقيقي، بل وجّه الشعب أيضًا نحو المستقبل. فكثيرًا ما يشير المرمم الكنسيّ إلى مجيء المسيح الذي كان النبيّ يبشّر به، وإلى تجسّده الإلهيّ، وإلى الكرازة بالثالوث القدوس، وإلى الخلاص الذي سيأتي به الله المتجسّد. «لقد بشّرت بالثالوث، يا عاموص الناطق بالإنبيات» (ستيخيرا الغروب). «إنّ الخلاص الإلهيّ الذي سبق فأنبأت به قد ظهر، أيّها النبي العجيب عاموص» (الأودية السابعة). «لقد صرت مُعلنًا لتجسّد الكلمة، يا عاموص» (الأودية الثامنة).

وهذا يبيّن، بطبيعة الحال، مدى الصلة الوثيقة بين العهد القديم والعهد الجديد. فالشاعر الكنسيّ يغتنم الفرصة ليتكلّم في هذا أيضًا: فالنبي، مع كونه منتميًا إلى حيّز العهد القديم، قد صار عمودًا للعهد الجديد، وبالتالي دعامة لسقفه. «لقد أقمت عمودًا، أيّها النبي، للعهد الجديد، حاملًا سقفه» (الأودية الثالثة).

ومن المعلوم أنّ من أراد أن يقبل أحد العهدين ويُقصي الآخر أو يُهوّنهُ، فإنّه يسقط من الحقيقة. فالعهد القديم يحيل إلى الجديد، والجديد يحيل إلى القديم. وكما يلاحظ القديس يوحنا الذهبي الفم، فهما أختان تخدمان السيّد نفسه. والرّب نفسه قال: «أنّه لا بُدّ أن يتمّ جميع ما هو مكتوب عنيّ في ناموس موسى والأنبياء والمزمير» (لوقا ٢٤: ٤٤). ولذلك فالأخبار الجديدة ليست جديدة، لأنّ العهد القديم سبق فأنبأ بها. والأمور القديمة ليست قديمة، لأنّ العهد الجديد أظهرها وثبّتها.

الشرقية، حتى صار «ستراتيلاتيس»، أي ما يعادل رتبة «قائد عام» أو «جنرال» في عصرنا.

وقد بلغ صيته الإمبراطور ليسيونيوس (٣٠٧-٣٢٤)، الذي دعاه ليتعرّف إليه ويكافئه على خدماته العسكرية القيّمة. لكن بعض المستشارين المتعصبين أخبروه بأن **ثيوذورس مسيحي**. وكان ليسيونيوس وثنيًا متعصبًا ييغض المسيحية بشدّة.

فأرسل إليه رسالة يقترح عليه فيها أن يقدمًا معًا الذبائح للآلهة. فأجابه **ثيوذورس** بلطف ودهاء، معتذرًا عن عدم قدرته على اللقاء في ذلك الوقت، واقترح عليه أن يأتي إلى هيراكليا، حيث يقدمان الذبائح هناك. لكنه في الحقيقة كان يريد كسب الوقت.

وقد صدّق الإمبراطور كلامه، وزاره فعلاً في هيراكليا، حيث استقبله القائد استقبالا مهيبًا. ثم طلب منه أن يعطيه الأصنام والتماثيل الوثنية المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة، بزعم أنه سيكرمها. لكن ما إن أخذها بين يديه حتى حطّمها، ووّرّعها على الفقراء ليبيعوا ما فيها من معادن ثمينة ويسدّوا حاجاتهم.

فاندش ليسيونيوس من هذا التصرف، واعتبره إهانة للآلهة وإهانة شخصية له. فأمر فورًا بالقبض عليه وإحضاره إليه ليستجوبه. وفي البداية حاول أن يخفي غضبه، فلجأ إلى التملّق لإقناعه بإنكار إيمانه وتقديم الذبائح، مذكّرًا إياه بأن مجده العسكري إنما هو من فضل الآلهة، وبالتالي يجب عليه أن يقدم لها الذبائح.

لكن **ثيوذورس** بقي هادئًا وثابتًا، وأجابه بأن إيمانه المسيحي أثمن من كل مناصب العالم، وأن تلك «الآلهة» ليست إلا أوهامًا صنعها الخيال، وأن وراءها تقف الأرواح الشريرة التي تُعبَد من خلالها. وأعلن أن **الإله الحقيقي هو الثالوث القدوس الذي أعلنه يسوع المسيح**، الذي تجسّد وصار إنسانًا ليخلصنا من الخطيئة والفساد والموت، وينقذنا من ظلمة الوثنية والضلال، ويجعلنا أبناء النور.

فاشتعل الإمبراطور غضبًا، وهدّده بعذابات قاسية، لكن **القدّيس** بقي ثابتًا في إيمانه، مشتاقًا إلى الاستشهاد. فأمر بعزله من رتبته، وتجريده من ثيابه، وجلده بسياطٍ من عصبٍ تنتهي بكرات من الرصاص، فمزّق الجلادون لحمه بوحشية. ثم ألّفوه في السجن **سبعة أيام** بلا طعام ولا ماء، منتظرين أن يتراجع، لكنه لم يلن.

وأخيرًا، أمر الإمبراطور بصلبه وسط إهانات شديدة وتعذيب لا يُوصَف. وهكذا **أسلم روحه إلى الله، منطلقًا إلى السماء ليلتقي بالملك الحقيقي، المسيح**.

أما جسده، فقد أخذه المسيحيون ودفنوه بإكرام عظيم. وكان ذلك في **٨ شباط سنة ٣١٩م**، وهو اليوم الذي حدّته الكنيسة لعيده. لذا يُعيّد **للقدّيس ثيوذورس في الثامن من شباط**، كما يُحتفل أيضًا بتذكّار نقل ذخائره المقدّسة في الثامن من حزيران حسب التقويم الشرقي.

وهو يُعدّ من زمرة الشهداء العظام، وما زال يحظى بإكرام المؤمنين عبر الأجيال.

هؤلاء هم أبطال إيماننا الرُّومي الأرثوذكسي!



القدّيس ثيوذورس قائد الجيش

(Θεόδωρος الستراتيلاتيس):

الشهيد العظيم البطل للمسيح.

يريد بعضُ المغرضين والجاهلين بالتاريخ أن يحصروا الإيمان المسيحي في الكنيسة الأولى بالفقراء والعبيد. غير أنّ التاريخ وسير القديسين (السنكسارات) في كنيستنا تكذّبهم تكذيبًا صارخًا. فقد اعتنق الإيمان الجديد أناسٌ من جميع الطبقات الاجتماعية والمهن، ومن بينهم العسكريون، الذين خرج من صفوفهم عددٌ لا يُحصى من الشهداء خلال اضطهادات القرون الثلاثة الأولى.

ومن بين هؤلاء كان **الشهيد العظيم ثيوذورس قائد الجيش**. ولا يُعرف على وجه الدقّة تاريخ ميلاده، لكن يُرجّح أنه وُلد في أواخر القرن الثالث للميلاد. وُلد في مدينة إفخانية في إقليم هيلينوبونتوس (البحر الأسود)، في تلك البقعة العريقة من أرض اليونانيين، من والدين يونانيين اعتنقا المسيحية. وقد قضى سنواته الأولى في هيراكليا البنطية في بافلاغونيا، ونشأ على يناييع الإيمان المسيحي والتقوى.

ومنذ صغره تميّز بقامته الفريدة، ومواهبه النفسية والروحية الغنية. كما نال ثقافة رفيعة، فدرس الكتب المسيحية المقدسة، وكذلك الفلاسفة اليونانيين القدماء، حتى صار خطيبًا بارعًا.

وفي شبابه، ظهر تفوّقه في القيادة، فاختار مهنة الجنديّة التي كانت آنذاك موضع احترام كبير، فالتحق بالجيش الروماني. وبفضل بنيتة القويّة، ومهاراته البدنيّة، وخاصة شجاعته وبسالته وفضائله العسكريّة الفطريّة، ارتقى سريعًا في الرتب العسكريّة في جيش الإمبراطورية في الأقاليم



جميع القديسين



سكسار أحد



لهؤلاء القديسين جميعهم الذين منذ الدهر عمّر الملك لاون الكلي الحكمة، الدائم الذكر، هيكلًا عظيمًا نفيسًا قرب هيكل الرسل القديسين **بداخل القسطنطينية**. وكما زعم البعض أنه أولًا كان قد عمّر هذا الهيكل لامرأته الأولى **ثاوفانو**، لأنها أرضت الله للغاية. والأمر المعجز هو أنها كانت فيما بين القلق والازعاج، وداخل القصور الملكية. فعندما كشف الملك للكنيسة ما قصده، رفضت الطاعة لإرادته أولًا، لأنها عرفت أمر الملك وثانيًا لكونها احتسبت أنه ليس من الواجب أن تكرم هكذا من الكنيسة التي كانت منهمكة أمس وأول من أمس بالخيالات الملوكية، حتى إنها تتجمل بهيكل عظيم الاحتفال، بديع الجمال، من دون أن يمنح لها الزمان الكرامة والاحترام. ويظهر أنها أرضت الله. فالملك الجزيل الحكمة برضى الكنيسة بأسرها أوقف هذا الهيكل الذي بناه لجميع القديسين الذين هم في كل أصقاع الأرض قائلًا: إن كانت **ثاوفانو** قديسة فلتعيّد مع هؤلاء جميعهم.

وأما أنا فأظنّ أنه هذا هو سبب البدء بأن يُعيّد هذا العيد، مع أنه كان أولًا. فلهذا المعنى وضع في آخر التريوديون، ليكون لجميع الأعياد غلقًا كالسباح. لأنه وإن كانت الكنيسة منذ الابتداء ابتدأت بحسن النظام والترتيب رويدًا رويدًا، وأتقنت جيّدًا وكما يجب. لكنه في أيام هذا الملك، بلغت الكمال وترتبت، كما هي عليه الآن من النظام والترتيب. وأما التريودي، فلكي أتكلم باختصار فانه يحتوي داخله محبّرًا بترتيب جميع ما عمله الله لأجلنا بألفاظ يُعتجز نعتها. وعن سقوط الشيطان من السماء بسبب معصيته الأولى. وعن نفي آدم وتعديده الوصيّة وعن تدبير كلمة الله بأسره الصائر لأجلنا. وكيف أننا صعدنا أيضًا إلى السماء بواسطة الرّوح القدس، وأنا قد ملأنا تلك الطغمة الساقطة التي قد تُعرف بواسطة جميع القديسين. ولنعلم أننا نُعيّد الآن لجميع ما قدّسه الرّوح القدس بعطيّة صالحة. وهذه العقول الفائق سمؤها المقدسة. هي التسع طغمات؛ الأجداد ورؤساء الآباء، والأنبياء، والرسل الأطهار، والشهداء، ورؤساء الكهنة، والشهداء الكهنة الأبرار، والأبرار الصديقين، وجميع مصافات النساء القديسات، وجميع القديسين الآخرين الذين لا أسماء لهم. وليكن معهم المزمعون أن يصيروا أخيرًا. **وقبل الكلّ وفي الكلّ ومع الكلّ، قديسة القديسين الفاتحة القداسة والفاتحة على كل قياس بزيادة من الطغمات الملائكية مولاتنا وسيدتنا والدة الإله مريم الدائمة البتولية.**

إنّ آباءنا الإلهيين أمرونا أن نكمّل هذا العيد بعد انحدار الرّوح القدس. كأنهم يوضّحون لنا بطريقة ما، وهي أن حضور الرّوح الكلي قدّسه قد فعّل بواسطة الرسل هذه الأفعال مُقدّسًا ومحكّمًا الذين هم من عجنتنا ومُقيّمًا إيّاهم كي يملأوا تلك الطغمة الملائكية الساقطة ومرسلًا إيّاهم لله بالمسيح. بعضهم بالشهادة والدم وبعضهم بالسيرة المفضّلة والتصرّف. وصارت أشياء تفوق الطبيعة، فالرّوح انحدر بشكل نار مع ان له الميل إلى العلو طبعًا. وأما التراب وعجنتنا فصعدوا إلى العلى اللذان لهما طبعًا الميل إلى أسفل. أما قبل مدّة، فإن الجسد المأخوذ لكلمة الله والمتألّه، قد ارتفع وجلس عن يمين المجد الأبوي. وأما الآن فإنه يجذب جميع المؤثرين، نظير الرد، وبهذا أظهر كلمة الله أفعال المصالحة، وما هي الغاية المقصودة من حضوره بالجسد إلينا وتدييره. وهكذا قد يقتاد إلى محبة الله والاتحاد به الذين كانوا قبلًا مُفصّين أي الشعب الغير المحافظ من الأمم، بتقدّم الطبيعة البشرية **بعض النجوم المعبرين فيها بطريقة سامية**. فإذا ن هذا المعنى نُعيّد هكذا **عيد جميع القديسين**.

ولمعنى ثانٍ، من حيث إنّ كثيرين ارضوا الله بالفضيلة القصى وهم غير مُسمّين عند الناس لأجل أمر من الأمور البشرية، لكنهم قد حازوا مجدًا كثيرًا عند الله، أو لأنّ كثيرين تصرّفوا بما يختص بالمسيح في الهند ومصر والعربية وبين النهرين وفريجية وفي النواحي العالية من بحر الجزر وأيضًا في كل نواحي المغرب إلى جزر بريطانيا، وأقول على الإطلاق في المشرق والمغرب ولم يتيسّر إكرامهم كلهم كما يجب، لأجل عدم المعرفة بهم، كما اعتادت الكنيسة، لكي ننال من قتلهم كلهم معونة وغوث، في أي مكان من الأرض أرضوا الله. وأيضًا على حسب ظني، انه لأجل العتيدين أن يصيروا قديسين، قد فرض الآباء الإلهيون أن نعيّد عيد جميع القديسين، مكرّمين ومحتوين جميع الأولين والآخريين الطاهرين وغير الطاهرين (جميع الذين سكنهم الرّوح القدس وقُدّسهم) أو **لمعنى ثالث**. انه وجب أنّ القديسين الذين يُعيّد لهم في كل يوم على انفراد، أن يُجمَعوا في يوم واحد، كي يظهر أنهم جاهلوا عن مسيح واحد وجميعهم اسرعوا ركضًا في ميدان الفضيلة ذاته وهكذا كلّهم كعبيد إله واحد تكلّلوا بواجب وأن هؤلاء أقاموا الكنيسة وكمّلوا العالم العلوي محرّكين إيانا أن نكمّل الجهاد نظيرهم، الذي هو كثير الأنواع ومختلف بمقدار ما عند كل أحد من القوة وأن نسرع بكل نشاط.

تكملة من صفحة ١٣

فأصطحبها ونرحل معًا، وإمّا أحرّقكم كلّكم هنا كما تُحرق الأوراق». وكان من الطبيعي أن تضطرب رئيسة الدير. فشعرت بالقلق وركضت تطلب **نكتاريوس** الذي أبدى رفضه بغية حماية الفتاة من بوائن هذه الأمّ. ومن جهة أخرى فإنّ ماري نفسها لم تكن ترغب بالعودة إلى أمّها. فذهبت بائعة الشموع وهي تشتتم بأعلى صوتها وتهتّد سكان الدير بجزّة أرضيّة سوف تقلب كلّ شيء رأسًا على عقب. وبالفعل فقد قلبت كلّ شيء رأسًا على عقب.

يتبع في العدد القادم

بالشتائم وتحمل إليهم أحيانًا أخرى الهدايا والزيت والشموع بوجه هادئ ومبتسم. ولكن، وبما أنها كانت أداة للمخادع القديم، الشيطان عدوّ الشّر، فقد جاء وقت عملها لنشر الاضطراب والقلق ولتنفيذ الخطة التي أوكلت إليها. وهكذا فقد وصلت في صباح أحد الأيام نصف ثملة والتمست رؤية رئيسة الدير وطالبتها باستعادة ابنتها في الحال. وصرخت في وجهها بعينين منتفختين حمراوين ترسلان للهيبة: « إمّا أن تُسلميني إيّاها حالًا وفي هذه اللحظة بالذات

الصورة الحية لله داخل الإنسان



الصورة الحية لله داخل الإنسان

إن الكنيسة الأرثوذكسية لم تحفظ فقط عقائد وقوانين وتقاليده، بل حفظت أيضاً سر الإنسان. حفظت الحقيقة المقدسة القائلة إن الإنسان ليس جسداً بلا غاية، ولا وجوداً عابراً في الزمن، بل هو صورة الله الحية، المخلوقة للأبدية. وهذه الصورة، وإن كانت قد تجرحت بالخطيئة، إلا أنها لم تفقد قط نفخة الخالق الساكنة فيها.

لقد صار الله إنساناً لكي يبحث داخل خليقته عن بهاء الفردوس المفقود. صار جسداً، لا ليعلّم فقط، بل ليشفي طبيعتنا المشوهة. فالمسيح لم يتخذ إنساناً نظرياً، بل الإنسان المتألم، الساقط، المتعب، الذي فقد نور الشركة مع الله. ومن خلال تجسده، أعاد إلى الإنسان كرامته العظمى.

لذلك ترى الأرثوذكسية كل إنسان كـ شخص مقدس، لا كرقم، ولا كوحدة اجتماعية، ولا كآلة للإنتاج والاستهلاك. فكل نفس هي صورة فريدة لله لا تتكرر. وحتى عندما يغرق الإنسان في السقوط، وحتى عندما تظلمه الأهواء، يبقى في أعماقه نداءً لا ينطفئ نحو النور.

الخطيئة لم تدمر الصورة الإلهية، بل شوّتها وأعتمتها، كجراحة امتلأت

غباراً فلم تعد تعكس النور بوضوح. وهنا تأتي الكنيسة بأسرارها، وبالنبوة، والصلاة، والجهد الروحي، لكي تنظف وجه الإنسان من صدى الأهواء. لذلك فالجهد الروحي الحقيقي ليس تدبيراً خارجياً، بل هو استعادة الصورة الإلهية في داخلنا.

عندما يفقد الإنسان الله، يفقد أيضاً ذاته الحقيقية. حينئذ تصبح النفس قفراً. تكثر المعارف لكن الحكمة تقل. وتكثر وسائل التواصل لكن القلب يبرد. إن العالم المعاصر يتحدث باستمرار عن حقوق الإنسان، لكنه ينسى قدسيّة الشخص البشري. وعندما لا يعود الإنسان يرى كصورة لله، يصبح بسهولة مجرد شيء، أو أداة استغلال، أو رقماً، أو ظلاً.

فقط في نور المسيح يجد الإنسان هويته الحقيقية، لأن المسيح هو المثال الكامل للطبيعة البشرية. وكل من يبتعد عن المسيح يفقد تدريجياً ملامح وجهه الداخلي. أما الذي يعود بالتوبة، فيكتشف في أعماقه ملكوت الله الذي نسيه.

إن قديسي الكنيسة هم أولئك الذين نقوا قلوبهم حتى أشرقت في داخلهم من جديد الصورة الإلهية. لذلك كان حضورهم يمنح السلام، وكلماتهم تشفي، وعبودتهم تعكس سلاماً سماوياً. لقد صاروا مساكن للروح القدس، وحياتهم تُثبت أن الإنسان لم يُخلق للفساد، بل للنعمة.

فلنحفظ إذًا بخوف الله هذه الصورة المقدسة في داخلنا. ولا نسلم نفوسنا لاعتياد الخطيئة، ولا للقساوة، ولا للامبالاة، ولا لروح هذا العالم. فما دمنا نتنفس، تستطيع صورة الله فينا أن تتنقى، وتستير، وتقوم من جديد. وحينئذ لا يعيش الإنسان حياةً بيولوجيةً فقط، بل يصير نوراً وسلاماً وشهادة لحضور الله في العالم.

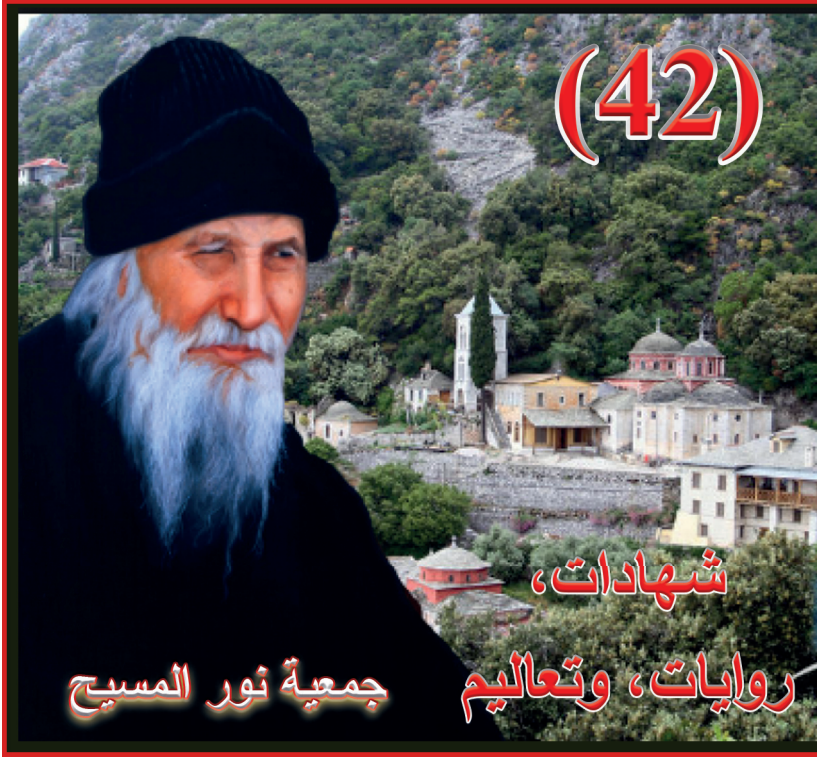
إن الخلاص ليس تبريراً قانونياً، بل هو عودة الإنسان إلى جماله المفقود، وتجديد الصورة الإلهية في القلب.

«وَأَلْبَسُوا الْإِنْسَانَ الْجَدِيدَ الْمَخْلُوقَ بِحَسَبِ اللَّهِ فِي الْبِرِّ وَقَدَاسَةِ الْحَقِّ». (أفسس ٤ : ٢٤)

فلنتذكر دائماً أن الله يرى في داخلنا ذلك الذي كثيراً ما نسيناه نحن: صورته الحية.

وبنعمة المسيح، تستطيع النفس المظلمة أن تعود نوراً من جديد.





(42)

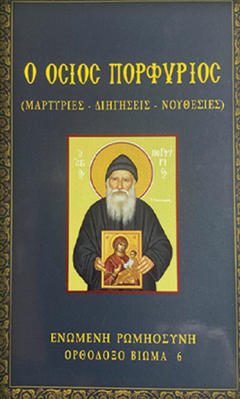
شهادات،
روايات، وتعاليم
جمعية نور المسيح

القديس
پورفيرىوس الرّائى

كافسوكاليفيا

جبل آثوس

اليونان



العجيبه الثالثة والعشرون: من عجائب القديس بورفيرىوس

كشوفات ونبوءات

شهادة السيّد جورجىوس ميتيلينىوس، اللاهوتي من تسالونيكى:

كان ذلك في شتاء سنة ١٩٨٨. أعطاني السيّد ساكوس رزمة تحتوي على أشرطة كاسيت من عظاته، ووعاء فيه جبنه فيتا، لكي أحملها متى استطعت إلى ميليسي. واصطحبت معي أيضًا طالبًا في كليّة الطب. وصلنا عند الساعة ١٤:٣٠، فقبل لنا إنّ الشيخ يستريح. وعند الساعة الخامسة مساءً استقبلنا.

كان جالسًا على السرير. وكان داخل قلايته حرّ لا يُحتمل بسبب مرضه. أمسك بأيدينا بكلتا يديه. أمّا أنا فأمسك معصمي بيده اليسرى. وكانت يده ملفوفتين بالأقمشة.

كان يسألنا أمورًا عامّة: من أين نحن؟ ماذا نعمل؟ وماذا يدرس هذا الشاب؟ وما إلى ذلك... طرح عليّ ثلاث أو أربع أسئلة، ثم تركني وبدأ يطرح ثلاثًا أو أربع أسئلة على الطالب.

– كم ولدًا لديك؟

– أربعة يا شيخ: ديميتري، وأرغيري، وفيقي، وماريا.

– إنّي أرى أولادك... أراهم... فيقي، وأرغيري، وديميتري، وماريا.

وقد ذكرهم الشيخ بحسب ترتيب ولادتهم تمامًا، مبتدئًا من الأكبر.

ثم قال:

– هل رأيت كيف تنهمر دموع أرغيري عندما توتّحها؟

وبعد قليل أضاف:

– لماذا تحبّ ماريا أكثر من سائر الأولاد؟

وفي هذه اللحظة نصحني أن أكون شديد الانتباه، وألا أظهر تمييزًا بين أولادي، بل أن أظهر المحبة نفسها للجميع، لأنهم يغارون.

ثم قال لطالب الطب بعد الأسئلة المناسبة:

كان هناك طبيب في زاكينثوس شديد الإهمال وعدم الاكتراث، فكان المرضى يقعون في مشكلات كبيرة. وكانت التنقلات في تلك الفترة صعبة أيضًا، وكان الناس يتألّمون كثيرًا بسبب استهتار ذلك الطبيب. انتبه جيدًا عندما تكتب الوصفات الطبيّة. وانتبه لأيّ أدوية تكتب لكلّ مرض، لكيلا تعطي وصفة خاطئة ويتألّم المريض. ثم سأله:

– ما رأيك في الديناميكا الجزيئيّة؟

– لا أعرف هذا يا شيخ، أجب الطالب.

– فكّر في الأمر، فكّر ما هي الديناميكا الجزيئيّة؟

– لكن هذا لا علاقة له بالطب. لا أعرف.

– فكّر في الأمر، فكّر بشيء وأخبرني. ماذا يقول عقلك؟ ما هذا؟

حاول الطالب أن يعطي تفسيرًا، وكان القديس يتركه يحاول أن يفكّر في ماهيّة هذا الأمر. وكان يظنّ أنّه شيء لا علاقة له باختصاصه،

رغم أنّ القديس قال له: «له علاقة بمجالك.»

غادرنا المكان، ونال الطالب شهادته سنة ١٩٩٤، وبعد خمسة عشر

عامًا قام بدراسات عليا في لندن إلى جانب الطبيب الشهير ديغو

فيرغاني. وكان اختصاصه الفيزياء الطبيّة والديناميكا الطبيّة.

وفي أحد الأيام أعطوه ملقًا يحمل موضوع رسالة الدراسات العليا.

ولمّا فتح الملفّ رأى مكتوبًا عليه: «الديناميكا الجزيئيّة.»

وكانت الصدمة قويّة جدًّا، والتأثّر عظيمًا للغاية، حتّى إنّّه خرج من

القاعة وهو يبكي. واتّصل فورًا بوالديه وإخوته وأخبرهم بما حدث.

وكان الطبيب ديميتريوس م. يشغل منصب أستاذ طبّ في لندن، وله

أبحاث واكتشافات ومنشورات كثيرة... وغيرها. أمّا اليوم فهو يعمل

في مستشفى يوناني.

ثلاث يورو هات للأب غريغوريوس



Στο μικρό πορτοφόλι ενός
ταπεινού μοναχού χωρούσε
μια ολόκληρη θεολογία
εμπιστοσύνης προς τον Θεό.

في المحفظة
الصغيرة لراهب
متواضع،
كانت تتسع
لاهوتية كاملة
من الثقة بالله.

شذرات روحية من جبل آثوس المقدس

كان **الأب غريغوريوس** راهبًا متوحّدًا، لا سند له في هذا العالم سوى الله. كانت قلايته مغارة صغيرة في الصخر، قُرب كاتوناكيا في جبل آثوس. وكان الحجاج الذين يزورونه يحاولون غالبًا أن يتركوا له بعض المال، عندما يرون حذاءه المثقوب وثوبه البسيط. وكانوا يقولون له:

«يا أبانا، خذ هذه من أجل احتياجاتك».

لكنّه لم يكن يقبل سوى ثلاثة يورو هات فقط. ولا سننًا واحدًا إضافيًا. وإن أصرّ أحدهم أن يُعطيه ورقة نقدية كبيرة، كان يطلب منه أن يذهب إلى كارييس عاصمة جبل آثوس ويُدّلهَا، ثم يُعيد إليه ثلاثة يورو هات فقط.

وذات يوم سأله راهبٌ مبتدئٌ اسمه **بولس**، وكان يعيش في إسكيت قريش، فقال له بتعجب:

«يا شيخ، لماذا تُرهب نفسك بهذه العملات القليلة؟ فثلاثة يورو هات لا تشتري حتى زيت السنة! لماذا لا تحتفظ بشيءٍ إضافيٍّ لوقت الحاجة؟»

فدعا **الأب غريغوريوس** أن يجلس إلى جانبه على المصطبة الحجرية المطلة على زرقة البحر اللامتناهية، ثم قال له بهدوء:

«اسمع يا ولدي... إنّ محفظتي تشبه الميزان. فعندما يكون فيها ثلاثة

يورو هات، تبقى الكفتان متوازنتين بين الأرض والسماء».

اليورو الأول: هو «الشكر» على الأمل. إنّهُ يذكّرني أنّي عشتُ يومًا آخر، ولم ينقصني شيء.

اليورو الثاني: هو «العناية الإلهية» لأجل اليوم. فإن جعتُ كثيرًا، أشتري قطعة خبزٍ يابس. وإن عطشتُ، فماءُ النبع مجانيّ.

اليورو الثالث: هو «الضيافة» لأجل الغريب. فإن جاء إنسانٌ أكثر جوعًا مِنّي، ينبغي أن أملك شيئًا أقدمه له.

فسأله بولس: «وماذا عن الغد يا شيخ؟»

فابتسم **الشيخ** وقال: «الغد يا ولدي مُكلف، وأنا فقير.

فإذا وضعتُ في محفظتي يورو رابعًا، سأبدأ بالتفكير بالغد. وما إن يبدأ الإنسان بالانشغال بالغد، حتى يفقد سلام اليوم. هذه اليورو هات الثلاث هي ضمانتي بأنّ الله نفسه سيتكفل بالرابعة».

وبعد مدة قصيرة مرض **الأب غريغوريوس**. وعندما ذهب الراهب ليعتنوا به، وجدوا محفظته فوق الطاولة. وكان فيها - كما دائمًا - ثلاثة يورو هات فقط. وإلى جانبها ورقة صغيرة كُتبت فيها:

«يورو للكاهن الذي سيقرا الصلاة على جثمانِي، ويورو لمن سيفتح قبرِي، ويورو لتشتروا فنجان قهوة لأول حاجٍ يأتي بعد رحيلي.

إني أرحلُ غنيًا، لأني لا أترك وراءِي ولا همًّا واحدًا لأحد».

فاحتفظ الراهب بولس بتلك المحفظة كذخيرة روحية. لا لقيمة المال، بل لكي يتذكّر دائمًا أنّ السعادة الحقيقية ليست في امتلاء المخازن، بل في حفة القلب الذي لا تُثقله الأرض.

أما نحن...

فهل نملك سلامًا في نفوسنا، حتى لو كان في محفظتنا ثلاثة يورو هات فقط؟

لقد ملأ الإنسانُ المُعاصر بيته بالأشياء، لكنّه أفرغ قلبه من الثقة بالله.

تعلّم كيف يُؤمن الأبواب والحسابات والمخازن، لكنّه نسي أن يجرس عقله من الهم والاضطراب. وكلّما ازدادت العناية بالأمر الأَرْضِيَّة، خفّت صوتُ سلام المسيح في داخله.

إنّ الآباء القديسين لم يعلموا الإهمال ولا الكسل، بل علّموا التحرّر من عبودية المادة.

فشيءٌ أن يستخدم الإنسان المال، وشيءٌ آخر أن يصبح المأل هو الذي يستخدم الإنسان ويستعبده. لأنّه حيث يكون كنزنا، هناك تُسي قلوبنا أيضًا. وحين يسهر العقلُ قلقًا على الغد، يصعب عليه أن ينحني في الصلاة بقلبٍ نقيّ.

لم يكن **الأب غريغوريوس** يملك ثلاثة يورو هات فقط، بل كان يحمل ثلاث فضائل عظيمة:

شكرًا على ما عاشه، وثقةً بما يعيشه، ومحبةً لمن سيلتقيه.

وعلى هذه الحجارة الثلاث كانت نفسه تستريح، كما تستريح الأمواج على شاطئٍ هادئ.

ألم نفقد بساطة الأقدمين الذين كانوا يأكلون قليلاً، ويصلون كثيراً، وينامون بسلام؟ إن الإنسان الذي يترك مكاناً لله في حياته لا يشعر أبداً بالوحدة.

فحتى في فقره يمتلك سلاماً ملوكياً، لأن أعظم ثروة ليست ما تمسكه بأيدينا، بل ما نضعه بين يدي عناية الله.

وربما كانت أعظم معجزة في الأب غريغوريوس، ليست فقره الاختياري، بل أنه استطاع أن يرحل من هذه الحياة دون أن يترك في قلبه ولا قلماً واحداً.

ليتنا نتعلم نحن أيضاً أن نعيش بحقة فوق هذه الأرض، لكي ترتفع قلوبنا بسهولة أكبر نحو السماء.

ففي الحفظة الصغيرة لراهب متواضع، كان يسكن لاهوت كامل للثقة بالله.

كثيرون اليوم تمتلئ حساباتهم في المصارف، فيما تخلو عيونهم من الطمأنينة والرجاء ومن سلام المسيح الذي يفوق كل عقل. ينامون وسط الضمانات الأرضية، ويستيقظون بالخوف. لأن الراحة الحقيقية لا تولد من كثرة المال، بل من حضور نعمة الله داخل القلب.

فالإنسان الذي تعلم أن يقول: «المجد لله» حتى في القليل، هو أغنى من ذلك الذي يعد ممتلكاته كل يوم ولا يشبع أبداً.

لقد دعت الكنيسة الإنسان دائماً إلى البساطة.

فالمسيح ولد في مغارة، وسار بلا غنى، وعلم بلا عروش، وصلب عارياً من كل مجد أرضي. ومع ذلك صار ملك القلوب، لأن المحبة لا تسكن في الترف، بل في نقاوة النفس.

فلنفحص أنفسنا بهدوء... أليست محافظتنا أثقل من قلوبنا أحياناً؟ ألا نحفظ بأشياء لا نحتاجها خوفاً من ألا نثق بالله؟

غير ممكن لدى الله.

أما العجيب التالية، فقد وصفت في الخدمة الكنسية التسيحية لسنة ١٨٩٧، بقلم الهرمناخوس ديونيسيوس، الذي كان شاهد عيان ومتألماً شخصياً أيضاً، إذ كان تلميذاً في المدرسة اليونانية التي كانت تقع بجوار كنيسة القديس باسيليوس. ونقل شهادته حرفياً:

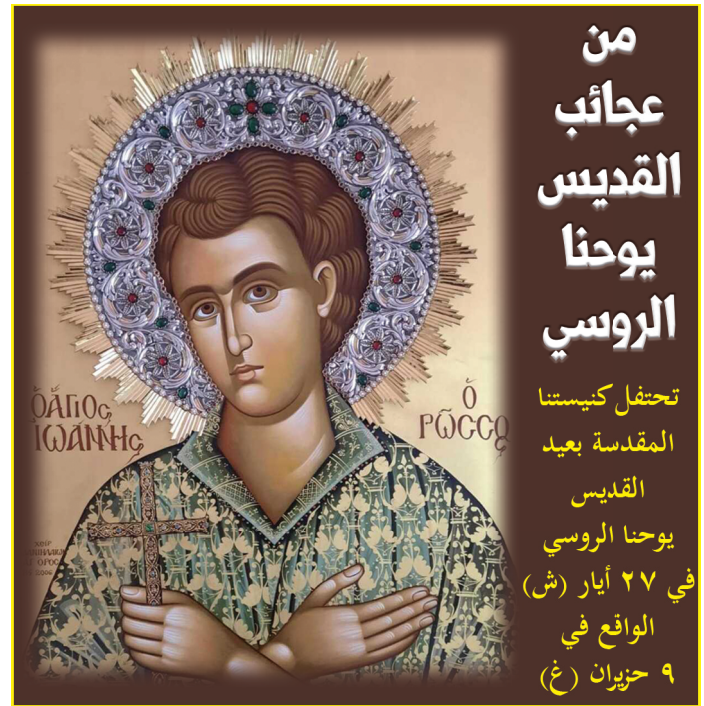
في سنة ١٨٦٢، وفي يوم سبت، بينما كان الصباح لا يزال باكراً، وكانت الذبيحة غير الدموية تُقام في الكنيسة المذكورة أعلاه، كنيسة أينا القديس باسيليوس، كانت امرأة تقوية تروي للنساء الحاضرات في الكنيسة قائلة: «إني رأيت البارحة في الحلم القديس يوحنا خارجاً بسرعة من تابوته، وكان يمسك بكلتا يديه سقف المدرسة اليونانية، الذي كان على وشك الانهيار».

وبينما كانت تقول هذه الأمور، سُمع فجأة صوت ارتطام وضجيج عظيم، فخرج جميع المصلين فوراً من الكنيسة، ورأوا حقاً أن سقف المدرسة بكامله قد انهار فوق التلاميذ المجتمعين هناك.

فهرع الجميع بالبكاء والنحيب، ورفعوا سريعاً السقف الثقيل المنهار، وأخرجوا التلاميذ المدفونين والمطحونين تحته، وكانوا أكثر من عشرين تلميذاً، فإذا بهم أحياء - يا للعجيب! - وبصحة كاملة.

ولما سألو التلاميذ: كيف جرى لكم هذا؟ وكيف نجوتم من مثل هذا الخطر؟ أجابوا قائلين: «حين سمعنا فجأة الصرير العنيف والقوي لخشبات السقف، ورأينا الخطر المحدق بنا، انخفضنا جميعاً في لحظة واحدة، وكأنا باتفاق مسبق، أو كأن يدًا غير منظورة كانت تقودنا، تحت المقاعد، بخوف ورعدة وذعر شديد. وفي الحال سقط السقف فوقنا بصوت مدوّ، لكن عوارض السقف، رغم كثرة المواد الثقيلة، ارتكزت فوق المقاعد الضعيفة، فيما بقينا نحن تحتها سالمين تماماً، بلا أذى أو إصابة، على خلاف كل توقع».

وهكذا، بنعمة الله، وبجراسة أينا البار يوحنا غير المنظورة، خلص يومئذ هذا العدد الكبير من الأطفال الأبرياء، الذين كبروا فيما بعد، مبشرين بعظام الله ومجدين قديسه العظيم يوحنا الروسي.



إن القديس يوحنا الروسي، بوصفه عبداً أميناً لله، قد نال موهبة صنع العجائب، ولذلك يُعتبر بحق، في نظر المؤمنين: حامياً للفقراء والمُتألّمين، وميناءً يحفظ من أخطار بحر هذه الحياة المالحة الهائجة، وخلاصاً في الشدائد، وغرماً لا ينضب من العطايا، ونبوعاً للبركات، ومصدراً دائماً للأشفية. ومن بين عجائبه الكثيرة جداً، تُذكر في هذا العمل بعض العجائب فقط، لكنها كافية لأن تُلهم النفوس وتُحرك الشفاه نحو التمجيد والتسبيح:

«... لكي أكرمك، وبشوق أرم لك، وأسجد وأعظم أعمالك المرضية لله، أيها القديس».

وهذه العجائب المثبتة تُشكل شهادة حيّة، في مواجهة ذلك الاتجاه غير النادر لدى كثيرين ممن يعتبرون مفهوم العجيب أمراً تجاوزه الزمن. كما أنّها حماية لأولئك الذين يطلبون، بحقة وطمع، عجائب كاذبة. ولعلّها أيضاً تُقلق تلك العقول المتكبرة والملحدة، التي تقف بقساوة فرعون، غير منتظرة شيئاً من إله مجهول، متجاهلة أنه: «ليس شيء»

تفسير رسالة القديس بولس الرسول الأولى

إلى أهل كورنثوس (52)

القديس يوحنا الذهبي الفم



القديس بولس الرسول

د. سعيد حكيم يعقوب

الجسد، قابل للفناء، ليس فقط لم يضر، بل وأفاد أيضًا؟ اسمع إن كنت يقطًا، ماذا انتفعت بسبب هذا، لقد انتزعتك وأبعدك عن الشر بواسطة الألم والأحزان والآلام وكل الأمور الأخرى الشبيهة بذلك.

ولكن قد يقول البعض إن الجسد يقود إلى الزنا أيضًا. لا، ليس الجسد هو السبب في ذلك، بل الفسق والرغبة الشريرة. بمعنى أن هذه الأمور التي أشرت إليها، هي بالكامل من سمات الجسد. ولذلك من غير الممكن أن يأتي إنسان إلى هذا الوجود، ولا يمرض ولا يتألم أو لا يشعر بالضيق، بينما من الممكن أن لا يزي. فإن كانت الشرور هي من السمات الطبيعية للجسد، فستكون لدى جميع البشر، لأنه هكذا يحدث مع كل ما يأتي من هذه الطبيعة، أما بالنسبة للزنا فلا ينطبق عليه نفس الشيء. إن الألم يأتي من طبيعة الجسد، بينما الزنا يأتي من الرغبة الشريرة.

إذا لا يجب أن تتهم الجسد ولا أن ينتزع الشيطان منك تلك الكرامة التي أعطها لك الله. وإن أردنا الدقة، فالجسد هو لجام متميز بقدرته على ضبط وثبات أو قفزات النفس، وهو يحد من الحماسة، ويستبعد التباهي والافتخار، ويعيننا في إنجازاتنا الكبيرة. لكن لا تذكر لي المهورسين، لأننا نرى جسادًا كثيرة وهي تركز نحو المنحدرات وتلقي بمن يمتطيها مع اللجام إلى أسفل، ولكننا لا نعتبر أن اللجام هو السبب، إذ إنه لم ينفصل أو ينقلع من تلقاء ذاته مما أدى إلى هذه الحادثة، بل إن الكارثة تسببت فيها الذي كان يمتطي الجواد، والذي لم يستطع أن يمسك باللجام جيدًا. فلتفكر بنفس الطريقة هنا أيضًا. فإن رأيت شابًا بينما يرتكب شرورًا كثيرة، لا تعتبر أن الجسد هو المسؤول، بل المسؤول هو القائد الذي جرّه إلى هذا. بمعنى أنه كما أن اللجام لا يضر الفارس الذي يمتطي الجواد، بل إن الفارس هو السبب في كل شيء، لأنه لم يمسك باللجام جيدًا، لذلك فإن الجواد تعاقب الفارس، ويصبح في حالة إرباك معها. وكثيرًا ما تجره عندما يسقط وتجره أن يلقي مصيره معها، هذا ما يحدث هنا بالضبط. وقد يقول الفارس الذي يمسك باللجام، أنا أشد اللجام وأضغط على فم الجواد حتى

الإصحاح السادس:

العظة السابعة عشر: (١ كو ٦: ١٢-١٤) - تنمة

«وَاللَّهُ قَدْ أَقَامَ الرَّبِّ، وَسَيَقِيمُنَا نَحْنُ أَيْضًا بِقُوَّتِهِ.» (١ كو ٦: ١٤).

٥) وربما يقول أحد: لماذا أعاني أنا؟ هل بسبب آدم سأهلك أنا؟ بالتأكيد ليس بسبب آدم، فأنت أيضًا لم تبق هكذا بلا خطيئة، بل حتى وإن كنت لم ترتكب نفس الخطيئة، لكنك على أية حال ارتكبت خطيئة أخرى. ومن ناحية أخرى فأنت لم تحسر بسبب الخطيئة، بل على العكس رجحت. أي إن كنت تنوي أن تبقى فانيًا إلى الأبد، لربما كان لحجتك مبررًا قويًا، لكن الآن أنت خالد، وإن أردت فيمكنك أن تشرق ببهاء أكثر من لمعان الشمس.

وقد يقول أحد، إن لم يكن آدم وحواء قد أخذنا جسدين فانيين، ما كان لهما أن يخطئا.

ماذا إذا؟ فلتخبرني هل أخطأ آدم لأنه أخذ جسدًا فانيًا؟ لا، على الإطلاق. لأنه إن كان بالحقيقة فانيًا، ما كان له أن يعاني ألم الموت بعد ذلك كعقاب. من الواضح من خلال ذلك النموذج، أن الجسد الفاني لم يشكّل قط عائقًا أمام السلوك بالفضيلة، بل على العكس فهو يساهم في التوصل إلى الكمال والتعفف، بمعنى أنه إذا كان الرجاء في الخلود فقط، قد جرّ آدم إلى التباهي والزهو إلى هذا الحد الكبير، فكم بالأكثر لو كان قد أصبح بالحقيقة خالدًا وأبديًا، فأية حماقة لن تقوده إلى هذه الحالة؟ لكن الآن عندما تخطئ، يمكنك أن تتخلص من الخطايا، لأن جسدك فاني وقابل للتحلل. هذه الأفكار هي قادرة بالحقيقة أن تقود إلى الكمال، ولكن إن أخطأت وأنت في جسد غير مائت أو خالد، فهذا معناه أن الخطايا تبقى دائمة.

فإن كان هذا الجسد قابلاً للفناء، فلا يكون هو علة الخطيئة، لذلك لا يجب أن تُنسب له مثل هذا الاتهام، بل إن جذر الشرور هو في الرغبة الشريرة. بمعنى لماذا لم يؤذ الجسد هاييل على الإطلاق؟ ولماذا لم ينفذ غيباب الجسد، الشياطين على الإطلاق؟ أتريد أن تعرف أن خلق

يدينون الجسد، والله، وقربيهم، على أن يدينوا أفكارهم، بهدف أن لا يبحثوا عن السبب الحقيقي وحتى لا يتحرروا من جذر الشرور.

أما أنتم فتعرفون مكائد الشيطان جيداً، فلتحولوا غضبكم تجاهه، وعندما تضعوا القائد الممسك باللحام فوق العربة، فلتحولوا عيون أذهانكم نحو الله. لأنه في المعارك الأخرى الذي يحدد المعركة، لا يقدم شيئاً، بل ينتظر نهاية المعركة، أما هنا، فإن الله هو المحارب عنا في كل شيء. هذا هو الذي يترقق بنا حتى ننال أكاليل الحياة الأبدية، والتي ليتنا نناولها جميعاً، بالنعمة والرأفات ومحبة البشر اللواتي لربنا يسوع المسيح الذي يليق به مع الآب والروح القدس المجد والقوة والكرامة إلى الأبد آمين.

يتبع في العدد القادم

بشرية ما لا يعلن إلا بالروح القدس.

إنّ القديس يوحنا الذهبي الفم يوتخ هذه الحالة بشدة، لأنّ الفضول المنفلت لا يقود إلى معرفة الله، بل إلى كبرياء الذهن. فالذي يبحث في الأمور السامية دون نقاوة في السيرة، يشبه إنساناً يحاول أن ينظر إلى الشمس بعينين ضعيفتين، فينتهي به الأمر إلى العمى.

وتعلم الكنيسة دائماً أنّه تسبق أولاً تنقية القلب، ثم استنارة الذهن، وأخيراً معاينة الأمور الإلهية. وبدون هذا الترتيب، يصبح كلّ حديث عن الإيمان مجرد كلام بشري، لا خبرة حقيقية في معرفة الله.

إنّ الرسل الأطهار لم يقتربوا إلى الحقيقة بفضول فلسفي، بل بالطاعة والاتضاع، إذ نالوا قوة الروح القدس. «سَتَنَالُونَ قُوَّةً مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ.» (أعمال الرسل ١ : ٨).

فإنّ معرفة الله الحقيقية لا تنشأ من الفضول، بل من التوبة والصلاة والطاعة لتقليد الكنيسة. وحيث يوجد الاتضاع، هناك تستقرّ النعمة، وهناك يستنير الإنسان ليعرف ما هو نافع لخلاصه. إنّ الذي يسعى إلى معرفة الأمور الإلهية دون جهاد وبدون إرشادٍ روحي، يُعرض نفسه لأن يُحوّل الأمور الإلهية إلى موضوع للفضول. أما الذي يطلب باتضاع، فينال نوراً بحسب مقياس قلبه، ويُقاد بأمان إلى الحقيقة.

فالكنيسة لا تخفي الحقيقة، بل تكشفها للذين يقتربون بمخافة الله وبروح منسحقة. إنّ الفضول الذي لا يصاحبه اتضاع يولد اضطراباً، أما بساطة القلب فتلد سلاماً. لذلك يبحث المؤمن أن يجاهد بالأحرى في تنقية قلبه، بدل أن يبحث في أمور تفوق حالته الروحية. فحيث توجد التوبة، تُعطى المعرفة كعطية، لا كإجازة يُكتسب. بالاتضاع والتميز يسير الإنسان في أمان، لأنّ الله حينئذ لا يغضب من الفضول غير المميز، بل يسرّ أن يعلن ما يقود إلى الخلاص. فالذي يحفظ قلبه من كبرياء الذهن، يصير مُستعداً لقبول الحكمة الإلهية، ويدرك أنّ أعظم سرّ هو الشركة مع الله نفسه، وهي تُعطى للمتواضعين لا للفضوليين. «تَعَلَّمُوا مِنِّي، لِأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ.» (متى ١١ : ٢٩)

توزع هذه المجلة مجاناً

يُدمي، لكي يحملني جيداً، لكنك أيها الفرس ألقيت بي إلى أسفل، أعتقد أنك مستحق لأن أهينك وأحتقرك وأن أعاقبك وأن أسحبك إلى خارج حتى لا أعرض إلى نفس المعاناة مرة أخرى. لذلك لا ينبغي على أحد أن يتهم اللجام، بل يجب أن يُدين نفسه وفكره الخاطيء.

إن الفارس والقائد الذي يقودنا هو فكرنا، والجسد هو اللجام الذي يُخضع الفرس للقائد الممسك به (الفكر). فإن كان الفكر والجسد، متوافقين ومنسجمين، فلن يعاني الإنسان أي مكروه. ولكن إن تُركت الأمور تصل إلى مرحلة الرخاوة، فإنك ستدمر وتحطم كل شيء.

فلنكن متعقلين، وأن لا نُدين الجسد، بل ندين فكرنا الشرير، لأنه بالحقيقة هذا هو عمل الشيطان، أن يجعل الحمقى يدينون كل شيء،



صوم الرسل الأطهار

تمييز الحياة الروحية واتضاع الذهن

إن صمت الاتضاع
يفتح طريق المعرفة الحقيقية.

Η σιωπή της ταπεινώσεως ανοίγει
τον δρόμο της αληθινής
γνώσεως.

شذرات روحية من جبل آثوس المقدس

«يَا رَبِّ، لَمْ يَرْفَعْ قَلْبِي، وَلَمْ تَسْتَعْلِ عَيْنَايَ، وَلَمْ أَسْأَلْكَ فِي الْعَظَائِمِ، وَلَا فِي الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنِّي.» (مزمو ١٣٠ : ١)

إنّ الحياة الروحية ليست ميداناً للاستعراض الذهني، ولا مجالاً لطلب المعرفة العالمية، بل هي طريق الاتضاع وتنقية القلب. فالإنسان الذي يقترب من الأسرار الإلهية بلا مخافة الله وبلا توبة، يحاول أن يدخل إلى ما لا يستطيع العقل وحده أن يثبت فيه. أما الذهن الذي ينساق وراء فضول بلا تمييز، فبدل أن يستنير، يظلم، لأنّه يسعى أن يفهم بمقاييس

لدعم نشاطات الجمعية تقبل التبرعات مشكورة
في بنك العمال فرع الناصرة، حساب رقم:

IBAN: IL48012726000000111122

كفر كنا - الشارع الرئيسي - ص . ب . ٦١٩

e-mail: light_christ@yahoo.com

http://lightchrist.org/bulletins.html

جمعية نور المسيح

المحرر المسؤول:

هشام خشيبون - سكرتير جمعية نور المسيح